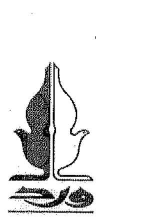
ميلان كونديرا

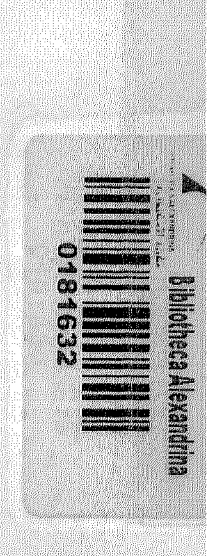
الهوية

رواية

ترجمة: د. أنطون حمصي







الهويّة

* ميلان كونديرا
* الهويّـــــة
* ترجمة د. أنطون حمصي

* الطبعة الأولى 1998
* الناشـــــر : ورد للطباعــة والنشــر والتوزيــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الاستشارة الأدبيـة : حيدر حيدر
* الإشــــراف الفني : د. مجد حيدر
* لوحــــة الغلاف : د. أحمد معلّا
* الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص. ب: 4490
دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

ميلان كونديرا

الهويّة

رواية

ترجمة: د. أنطون حمصي

عنوان الكتاب الأصلي:

L'IDENTITÉ

1

فندق في مدينة صغيرة على ساحل البحر النورماندي وجداه، مصادفة، في دليل. وصلت شانتال مساء الجمعة لتمضي ليلة، وحدها، دون جان مارك الذي كان يجب أن يلحق بها حوالى ظهر الغد. تركت حقيبة صغيرة في الغرفة وخرجت، وبعد نزهة قصيرة في أزقة مجهولة، عادت إلى مطعم الفندق. في الساعة السابعة والنصف، كانت القاعة ماتزال فارغة. جلست إلى طاولة في انتظار أن يلمحها أحد. وفي الجانب الآخر، قرب باب المطبخ، كانت نادلتان مستغرقتين في النقاش. وبما أن شانتال تكره أن ترفع صوتها، فإنها نهضت واجتازت القاعة ووقفت قربهما. ولأنهما كانتا أكثر استغراقاً في موضوعهما لذا لم تلاحظاها: «أقول لك إنه انقضى على ذلك عشر سنوات. أنا أعرفهم. هذا مخيف. لايوجد أثر، أي أثر، لقد تحدثوا عن ذلك في التلفزيون». الأخرى: «ماذا يمكن أن يكون قد حدث له؟ ـ لايمكن حتى تخيل ذلك. وهذا هو الأمر المخيف ـ جريمة قتل؟ ـ فتشوا كل الأرجاء ـ خطف؟ ـ ولكن من؟ ولماذا؟ لم يكن شخصاً غنياً ولاهاماً. لقد عرضوهم، عرضوا زوجته وأبناءه، في التلفزيون. ياله من يأس! هل تتبينين ذلك؟».

ثم لاحظت شانتال: «أتعرفين برنامج التلفزيون حول الأشخاص المختفين؟ اسمه «غاب عن الأنظار»!

قالت شانتال: نعم!

ـ ربما رأيت ماحدث لأسرة بورديو. إنهم من هنا.

قالت شانتال، غير عارفة كيف تحول مناقشة حول فاجعة إلى سؤال مبتذل عن وجبة طعام: نعم! هذا أمر بشع».

قالت النادلة الثانية أخيرا: «هل تريدين تناول طعام العشاء؟

ـ نعم!

ـ سأنادي رئيس الخدم، اذهبي للجلوس».

وأضافت زميلتها أيضاً: «هل ترين؟ شخص تحبينه يختفي ولن تعرفي، قط، ماالذي جرى له! إنه شيء يبعث على الجنون!».

عادت شانتال إلى طاولتها. جاء رئيس الخدم بعد خمس دقائق. أوصت شانتال على وجبة باردة بسيطة جداً. إنها لاتحب أن تأكل وحدها. آه كم تكره هذا، كم تكره أن تأكل وحدها!

كانت تقطع الجامبون في طبقها ولاتستطيع وقف الأفكار التي وضعتها النادلتان على دربها: كيف يمكن لأحد أن يفلت من الرقابة ويختفي دون أن يترك أثراً في هذا العالم حيث كل خطوة من خطواتنا مراقبة ومسجلة، حيث كاميرات تراقبنا في المخازن الكبرى، حيث يحتك الناس بعضهم ببعض دون انقطاع، حيث لايستطيع الإنسان أن يمارس الحب دون أن يستجوبه، غداة ذلك، باحثون ومستبرون («أين تمارس الحب؟»، «كم مرة في الأسبوع؟»، «بكيس واق أو دونه؟»)؟ نعم! إنها تعرف هذا البرنامج بعنوانه الذي يثير الخوف، «غاب عن الأنظار»، البرنامج الوحيد الذي يجرد صدقه وحزنه المُشاهد من سلاحه، كما لو أن مداخلة جاءت من عالم آخر قد أرغمت التلفزيون على التخلي عن كل خفة. كان مذيع يدعو، فيه، المشاهدين، بصوت رزين، إلى تقديم شهادة قد تساعد في اكتشاف المختفي. وفي نهاية البرنامج، تعرض، واحدة بعد أخرى، صور كل «الغائبين عن

لأنظار» الذين جرى الحديث عنهم في الحلقات السابقة، وبعضهم م يُعثر عليه منذ إحدى عشرة سنة.

تخيلتْ أن تفقد، هكذا، جان مارك ذات يوم، أن تبقى على جهلها، قاصرة عن تخيل كل شيء. إنها لن تستطيع حتى أن تنتحر لأن الانتحار سيكون، إذ ذاك، خيانة، رفض الانتظار، فقدان الصبر. سوف يُحكم عليها بأن تعيش، حتى نهاية أيامها، في رعب لاينقطع.

2

صعدت إلى غرفتها، نامت بمشقة واستيقظت وسط الليل، بعد حلم طويل. كان مسكوناً، حصراً، بأشخاص عن ماضيها: أمها (المتوفية منذ زمن طويل)، وخاصة زوجها السابق (لم تكن قد رأته منذ سنوات، ولم يكن يشبه نفسه كما لو أن مُخرِج الحلم قد أخطأ في توزيع الأدوار). كان هناك مع أخته المتسلطة والقوية ومع زوجته الجديدة (لم ترها أبداً، ومع ذلك لم تكن، في الحلم، تشك في هويتها). وفي النهاية، كان يقدم لها اقتراحات شبقية مبهمة، وقبّلت زوجته الجديدة شانتال، بقوة، في فمها محاولة أن تدس لسانها بين شفتيها. الألسنة التي تتبادل اللعق حملت دائماً شانتال على القرف. والواقع أن هذه القبلة هي التي أيقظتها.

كان الإزعاج الذي أثاره الحلم من المبالغة بحيث بذلت جهدها لتفسير سببه. فكرت في أن ماجعلها تضطرب إلى هذا الحد هو إلغاء الزمن الحاضر الذي أجراه الحلم. ذلك أنها تتمسك بشغف، بحاضرها الذي لاتبادله، مهما كان الثمن، لابالحاضر ولا بالمستقبل. وهذا هو السبب الذي، من أجله، لاتحب الأحلام: إنها تفرض مساواة غير مقبولة بين عهود حياة واحدة، تفرض معاصرة تجعل كل ماعاشه الإنسان على مستوى واحد. إنها تُفقد

الحاضر اعتباره بإنكارها عليه موقعه المتميز، كما حدث في حلمها، هذه الليلة: فقد أبيدت رقعة كاملة من حياتها: جان مارك، شقتهما المشتركة، كل السنوات التي عاشاها معاً. وفي مكانها، تمرغ الماضي، الأشخاص الذين قاطعتهم منذ زمن طويل والذين حاولوا اصطيادها في شبكة إغواء جنسي. كانت تحس على فمها بشفتين نديتين لامرأة (لم تكن قبيحة، فمُخرج الحلم كان متشدداً إلى حد كافٍ في اختياره الممثلة)، وكان هذا بغيضاً، بالنسبة إليها، إلى درجة، مضت معها في قلب الليل إلى الحمام لتغتسل وتتمضمض طويلاً.

3

ف. كان صديقاً قديماً جداً لجان مارك، فقد كانا يعرفان بعضهما منذ الثانوية. كانت لهما الآراء نفسها ويتفقان على كل شيء وظلا على اتصال حتى اليوم الذي انقضت عليه سنوات عديدة والذي انقطع، فيه، جان مارك عن محبته له، فجأة ونهائياً، وتوقف عن رؤيته. عندما علم أن ف. المريض كان في مستشفى من مستشفيات بروكسل، لم يحس بأية رغبة في زيارته، ولكن شانتال ألحت عليه بالذهاب.

كانت رؤية الصديق القديم محزنة، فقد احتفظ به، في ذاكرته، كما هو في الثانوية: فتى هش، حسن اللباس دائماً، يتمتع برقة طبيعية يحس جان مارك حيالها، كما لو أنه وحيد قرن. السمات الدقيقة التي كانت تُظهر ف. سابقاً أصغر من عمره جعلته، الآن يبدو أكبر: بدا وجهه صغيراً إلى حد بشع، منقبضاً، متغضناً كرأس مومياء أميرة مصرية ماتت منذ أربعة آلاف سنة. نظر جان مارك إلى ذراعيه: أحدهما تحت الحقنة، مثبتاً وقد غُرست إبرة في وريده، والذراع الآخر يؤدي حركات كبيرة لدعم أقواله. كان، منذ

القديم، إذ يراه يلوح بيديه يتشكل لديه انطباع بأن ذراعي ف. كانا بالنسبة إلى جسمه الصغير، أصغر أيضاً، دقيقين تماماً، كما لو أنهما ذراعي دمية. في ذلك اليوم زاد هذا الانطباع قوة لأن هذه الحركات الطفلية لاتتناسب أبداً، مع رصانة الحديث: كان ف. يصف له غيبوبته التي دامت عدة أيام قبل أن يرده الأطباء إلى الحياة: «أنت تعرف شهادات الأشخاص الذين عادوا إلى الحياة بعد موتهم، تولستوي يتحدث عن هذا في إحدى قصصه: النفق الذي في نهايته نور، جمال ماوراء العالم الجذاب. إلا اني أقسم لك أنه لم يكن هناك أي نور. والأسوأ هو أنه لم يكن هناك أي غياب للوعي. أنت تعلم كل شيء، تسمع كل شيء، إلا أنهم، أي الأطباء، لاينتبهون إلى ذلك ويقولون أي شيء أمامك، حتى مالاينبغي لك أن تسمعه: كونك قد ضعت، كون دماغك قد تلف».

سكت لحظة ثم قال: «لاأريد أن أقول بأن ذهني كان صافياً تماماً. كنت أعي كل شيء، ولكن كل شيء كان مشوهاً قليلاً، كما في حلم. بين وقت وآخر، يصبح الحلم كابوساً، إنه ينتهي بسرعة، تأخذ في الصراخ وتستيقظ، ولكني، من جهتي، لم أكن أستطيع الصراخ. وكان ذلك هو الأرهب: ألّا أستطيع الصراخ، العجز عن الصراخ وسط الكابوس».

ومن جديد، سكت ثم قال: «لم أخشَ الموت أبداً. أما الآن فإني أخشاه. لاأستطيع أن أتخلص من فكرة كون المرء يبقى حياً بعد الموت، كون موت المرء يعني أن يعيش كابوساً لاينتهي، ولكن لندع ذلك، فلندعه. فلنتحدث عن شيء آخر».

كان جان مارك واثقاً، قبل وصوله إلى المستشفى، من أنهما لن يستطيعا تلافي ذكرى قطيعتهما، ومن أنه سوف يكون مرغماً على أن يقول لصديقه ف. بضع كلمات مصالحة غير صادقة. ولكن مخاوفه لم تكن في محلها: ففكرة الموت كانت تجعل كل

الموضوعات الأخرى تافهة. وعبثاً حاول ف. الانتقال إلى شيء آخر، فقد كان يواصل الحديث عن جسده المُعاني. وهذه الرواية غاصت بجان مارك في الكآبة، ولكنها لم توقظ لديه أية عاطفة.

4

أهو حقاً على هذا القدر من البرود وانعدام الحساسية؟ ذات يوم، منذ سنوات عديدة، علم أن ف. قد خانه. آه، الكلمة مغالية في رومنطيقيتها ومبالِغة بالتأكيد: ففي اجتماع جرى في غياب جان مارك، هاجمه الجميع، وهو ماكلفه، فيما بعد، عمله (خسارة مؤسفة ولكنها ليست خطيرة جداً نظراً لقلة الأهمية التي كان يوليها لعمله). كان ف. حاضراً في هذا الاجتماع. كان هناك ولم يقل كلمة واحدة للدفاع عن جان مارك. ذراعاه الصغيران اللذان يحبان التلويح كثيراً لم يبديا أدنى حركة لصالح صديقه. ولما كان جان مارك لايريد أن يخطئ، فقد تحقق، بدقة، من كون ف. قد سكت حقاً. وعندما حصل على التأكيد الكامل، أحس بنفسه، لبضع دقائق، مجروحاً إلى آخر حد، ثم قرر أن لايعود إلى رؤيته أبداً. وبعد ذلك، أحس، فوراً، بارتياح لاتفسير لفرحه.

كان ف. قد أنهى عرض همومه عندما أشرق وجهه، وجه مومياء الأميرة الصغيرة، بعد برهة صمت: «أتتذكر أحاديثنا في الثانوية؟

قال جان مارك: لاأذكرها حقاً!

ـ أصغيت إليك، دائماً، كأنك معلمي عندما كنت تتحدث عن الفتيات».

حاول جان مارك أن يتذكر، ولكنه لم يجد في ذاكرته أي أثر لأحاديث الماضي: «ماذا كان يمكن لي، وأنا البليد ذو الستة عشر عاماً، أن أقول عن الفتيات؟

ـ تابع ف. قائلاً: أرى نفسي واقفاً أمامك وأنت تقول شيئاً حول البنات. أتذكر؟ كان يصدمني دائماً أن يكون جسدٌ جميل آلة إفرازات. قلت لك إني لم أكن أتحمل رؤية فتاة تتمخط. وأنا أراك من جديد: لقد توقفت، واجهتني بأنظارك وقلت لي بنبرة مجربة، صادقة وحازمة: التمخط؟ أنا يكفيني أن أرى كيف ترف عينها، أن أرى حركة الجفن هذه على القرنية حتى أحس قرفاً لاأكاد أن أستطيع التغلب عليه. أتذكر؟

قال جان مارك: كلا؟

ـ كيف أمكنك أن تنسى؟ حركة الجفن: فكرة على هذا المقدار من الغرابة؟

ولكن جان مارك كان يقول الصدق. فلم يكن يتذكر. وفضلاً عن ذلك، لم يكن يحاول حتى البحث في ذاكرته. فقد كان يفكر في شيء آخر: هذا هو المبرر الوحيد لوجود الصداقة: توفير مرآة يستطيع الآخر أن يتأمل فيها صورته الماضية التي كان من شأنها، لولا هذر الذكريات الأبدي بين الرفاق، أن تمّحي منذ زمن طويل.

ـ الجفن. ألا تتذكر حقاً؟

قال جان مارك: كلا!

ثم قال، صامتاً، في نفسه: لاتريد، إذن، أن تفهم، إني لاأبالي بالمرآة التي تقدمها لي؟

كان التعب قد حل على ف. الذي صمت كما لو أن ذكرى الجفن قد أنهكته.

قال جان مارك: «يجب أن تنام»، ونهض.

عند خروجه من المستشفى، أحس برغبة لاتقاوم في أن يكون مع شانتال. لو لم يكن منهكاً إلى هذا الحد لمضى فوراً. كان قد

تخيل، قبل وصوله إلى بروكسل، فطوراً غنياً في الفندق، في صباح اليوم التالي، ثم سفرة هادئة، دون تسرع. ولكنه ضبط منبه السفر بعد لقائه مع ف. على الساعة الخامسة.

5

خرجت شانتال من الفندق متعبة بعد ليلة رديئة. صادفت، في طريقها إلى شاطئ البحر، سياحاً من نوع سياح عطلة الأسبوع. كانت مجموعاتهم، كلها، تكرر المخطط نفسه: الرجل يدفع أمامه عربة فيها طفل والمرأة تمشي إلى جانبه. كان وجه الرجل ساذجاً، مهتماً، باسماً، مرتبكاً، قليلاً، ومستعداً، دائماً، لأن ينحني على الطفل، يمخطه، يهدئ صراخه. أما وجه المرأة، فقد كان ملولاً، متكبراً، بل (بصورة لاتفسير لها) شريراً أحياناً. هذا المخطط شهدته شانتال يتكرر في متغيرات متنوعة: الرجل إلى جانب المرأة يدفع العربة ويحمل، في الوقت نفسه، في كيس خاص، طفلاً على ظهره، الرجل إلى جانب المرأة يدفع العربة، يحمل طفلاً على كتفيه وآخر في كيس على بطنه، الرجل إلى جانب المرأة، دون عربة، يمسك طفلاً بيده ويحمل ثلاثة آخرين على ظهره وبطنه وكتفيه، وأخيراً، امرأة دون رجل تدفع العربة. كانت تدفعها بقوة يجهلها الرجال بحيث أنه كان على شانتال التي تمشي على الرصيف نفسه أن تقفز جانباً في آخر لحظة.

قالت شانتال لنفسها: الرجال تحولوا إلى باباوات. ليس الواحد منهم أباً، بل بابا فقط، وهو مايعني: أب دون سلطة أب. تخيلتْ أن تغازل بابا يدفع أمامه عربة فيها طفل ويحمل، أيضاً، اثنين، على ظهره وبطنه. إنها ستفيد من برهة تتوقف، فيها، المرأة، أمام واجهة مخزن لتهمس بموعد للزوج. ماذا سيفعل؟

أما زال يمكن للرجل الذي تحول إلى شجرة أطفال أن يلتفت

إلى مجهولة. ألن يأخذ الأطفال المعلقين على ظهره وبطنه في الصراخ ضد حركة حاملهم المزعجة؟ بدت لها هذه الفكرة مضحكة وجعلتها طيبة المزاج. قالت لنفسها: أنا أعيش في عالم لن يعود فيه الرجال يديرون وجوههم إليّ أبداً.

ثم وجدت نفسها، بين بضعة متنزهين صباحيين على الحاجز: كان ذلك وقت الجزر. السهل الرملي يمتد أمامها على مسافة كيلو متر. مضى وقت طويل لم تأت، خلاله، إلى ضفة البحر النورماندي، ولم تكن تعرف الأنشطة الرائجة التي كانت تمارس فيه: الطائرات الورقية والعربات الشراعية. الطائرة: نسيج ملون مبسوط على هيكل مخيف الصلابة، متروك للريح. وبوساطة خيطين، واحد في كل يد، تفرض عليها اتجاهات متنوعة بحيث تصعد وتهبط وتستدير، تصدر صوتاً مخيفاً شبيهاً بصوت ذبابة عملاقة، ومن حين إلى آخر، تسقط على الرمل، وأنفها في المقدمة، كطائرة تنسحق. فوجئت عندما تبين لها أن أصحابها لم يكونوا أطفالاً ولامراهقين، بل كانوا، كلهم تقريباً، راشدين، رجالاً دائماً، ولانساء أبداً. وبالفعل، كانوا باباوات، البابوات دون أطفال، البابوات الذين نجحوا في الهرب من زوجاتهم! لم يكونوا يهرعون إلى عشيقات، بل كانوا يركضون إلى الشاطئ كي يلعبوا!

ومرة أخرى وافتها فكرة إغواء ماكر: أن تقترب من الخلف، من الرجل الذي يمسك بالخيطين ويراقب، مقلوب الوجه إلى الوراء، طيرانَ لعبته الصاخب، وأن تهمس في أذنه بدعوة شبقية مؤلفة من أكثر الكلمات فحشاً. ماذا ستكون ردة فعله؟ لايراودها، حول ذلك، أدنى شك: فسوف يصرخ، دون أن ينظر إليها: دعيني بسلام، أنا مشغول!

أوه، كلا، الرجال لن يعودوا يديرون، أبداً، وجوههم نحوها.

عادت إلى الفندق. وعند موقف السيارات لمحت سيارة جان مارك. وفي صالة الاستقبال، علمت أنه وصل منذ أكثر من نصف

ساعة. مدت إليها موظفة الاستقبال رسالة: وصلت مبكراً. أنا ذاهب للبحث عنك. ج.م.

تنهدت شانتال وقالت: «ذهب للبحث عني، ولكن أين؟

ـ السيد قال إنك ستكونين، بالتأكيد، على الشاطئ».

6

مر جان مارك في طريقه إلى شاطئ البحر بمحطة أوتوبوس. لم يكن هناك سوى فتاة بالجينز والقميص. كانت، دون حماسة كبيرة، إنما بوضوح شديد، تتأود بردفيها كما لو أنها ترقص. وعندما اقترب منها، رأى فمها المنفرج: كانت تتثاءب طويلاً، دون شبع. كان هذا الثقب المفتوح إلى آخره موازناً، بعذوبة، من جانب الجسد الذي كان يرقص آلياً. قال جان مارك لنفسه: إنها ترقص وتمل. وصل إلى الحاجز. رأى في الأسفل على الشاطئ رجالاً يطلقون، ورؤوسهم مقلوبة إلى الخلف، طائرات ورقية. كانوا يفعلون ذلك بشغف، وتذكر جان مارك نظريته القديمة: هناك ثلاث فئات من الملل: الملل السلبي: الفتاة التي ترقص وتتثاءب، الملل الفعال: هواة الطائرات الورقية، والملل الثائر: الشبيبة التي تحرق السيارات وتحطم الواجهات.

وأبعد من ذلك على الشاطئ، هناك أطفال بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من العمر يعتمرون خوذات ملونة كبيرة، كانت أجسادهم الصغيرة تنثني تحتها. يتجمعون حول عربات طريفة: على الصليب الذي يشكله قضيبان معدنيان، ثبتت عجلة في الأمام وعجلتان في الخلف. وفي الوسط، كانت هناك علبة طويلة ومنخفضة يمكن لجسم أن ينزلق ويتمدد فيها. وفي الأعلى انتصبت سارية عليها شراع. لماذا يعتمر الأطفال الخوذات؟ لابد أن هذه

الرياضة خطرة. قال جان مارك لنفسه إن المتنزهين كانوا، مع ذلك، هم المهددين، خاصة، بالعربات التي يقودها أطفال، فلماذا لاتُعرض عليهم، بالذات، خوذة؟ لأن الذين يُعرِضون عن ضروب اللهو المنظمة هم الفارون من النضال الكبير المشترك ضد الملل ولايستحقون انتباهاً ولاخوذة.

نزل على السلم المؤدي إلى الشاطئ ونظر بانتباه إلى حاشية البحر المنسحبة. اجتهد في محاولة تمييز شانتال بين أطياف المتسكعين البعيدة. وأخيراً تعرف عليها. كانت واقفة تتأمل الأمواج والمراكب الشراعية والغيوم.

مر قرب أطفال كان مدرب يُجلسهم في العربات التي بدأت تتحرك، ببطء، في دائرة. وحوله كانت عربات أخرى تسير بسرعة كبيرة. الشراع الذي يعالج باليد هو، وحده، الذي يؤمن حسن اتجاه العربة ويسمح، بتحويله، بتجنب المتنزهين. ولكن هل يستطيع هاوٍ أخرق أن يتحكم بالشراع حقاً؟ وهل العربة، حقاً، دون عيب بحيث تستجيب لإرادة الملاح؟

كان جان مارك ينظر إلى العربات، وحين رأى أن إحداها تتجه بسرعة نيزك نحو شانتال تشنجت جبهته. كان رجل مسن يتمدد فيها كما لو أنه رائد فضاء في صاروخ. في هذه الوضعية الأفقية، لايستطيع أن يرى ماهو موجود أمامه! هل شانتال على درجة من الحذر تكفي لتجنبه؟ أرغى وأزبد ضدها، ضد طبيعتها المغالية في اللامبالاة، وحث خطاه. استدارت، ولكنها لم تكن ترى، بالتأكيد، جان مارك لأن مشيتها ظلت بطيئة، مشية امرأة غائصة في أفكارها وتمشي دون أن تنظر حولها. كان يود أن يصرخ بها كي لاتكون على هذه الدرجة من شرود الذهن، كي تنتبه إلى هذه العربات الغبية التي تجتاز الشاطئ. وفجأة تخيل جسدها مسحوقاً بالعربة، ممددة على الرمل، غارقة بالدم، والعربة تتبتعد على الشاطئ، ورأى نفسه يركض نحوها. كان منفعلاً بهذه الصورة إلى

حد أخذ معه فعلاً، بالصراخ باسم شانتال. كانت الريح قوية، والشاطئ شاسعاً، وصوته غير مسموع من أحد. ولذلك كان يستطيع أن يدع نفسه لهذا النوع من المسرح العاطفي وأن يصرخ بقلقه عليها والدموع في عينيه. كان يعيش، وقد تشنج وجهه بتكشيرة بكاء، بضع ثوان من رعب موتها.

ثم رآها ـ مندهشاً، هو نفسه، من هذه النوبة الهستيرية الطريفة ـ عن بعد تتنزه بلا مبالاة ساكنة، هادئة وفتانة، مؤثرة إلى آخر حد. وابتسم من كوميديا الحِداد التي مثلها على نفسه، ابتسم منها دون أن يلوم نفسه عليها لأن موت شانتال معه منذ أن بدأ يحبها. أخذ يركض، حقاً، ملوحاً لها بيده. ولكنها توقفت من جديد، ومن جديد واجهت البحر ونظرت إلى المراكب الشراعية البعيدة دون أن تلاحظ الرجل الذي كان يلوح بيده فوق رأسه.

وأخيراً! التفتت نحوه، وبدا عليها أنها رأته. رفع ذراعه مرة أخرى ممتلئاً سعادة. ولكنها لم تهتم به وتوقفت متابعة بأنظارها خط البحر الطويل يداعب الرمل. الآن، وقد أصبحت في وضعية جانبية، تبين له أن ماظنه جديلة شعرها كان شالاً حول رأسها. وبقدر ماكان يقترب (بخطوة غدت، فجأة، أقل تعجلاً بكثير)، كانت هذه المرأة التي ظنها شانتال تصبح مسنة، قبيحة، وبصورة ساخرة امرأة أخرى.

7

سرعان ماملت شانتال من مراقبة الشاطئ من فوق الحاجز، وقررت انتظار جان مارك في الغرفة. ولكن، ياله من نعاس كانت تحس به! ومن أجل ألا تفسد متعة اللقاء، أرادت أن تتناول فنجان قهوة بسرعة. غيرت، إذ ذاك، اتجاهها وسارت نحو جناح كبير من

الإسمنت والزجاج كان يضمّ مطعماً ومقهى وصالة ألعاب وبضعة دكاكين.

دخلت إلى المقهى. صدمتها الموسيقى القوية جداً. تقدمت متضايقة بين صفي الطاولات. وفي الصالة الكبيرة الفارغة واجهها رجلان بأنظارهما: كان الأول، المستند إلى مقدمة الكونتوار، شاباً في لباس نادل المقهى الأسود. وكان الآخر، وهو أكبر سناً، متين البنية، يرتدي قميصاً ويقف في آخر الصالة.

وقالت للمتين وقد انتوت الجلوس: «هل تستطيع أن توقف الموسيقى؟

خطا نحوها بضع خطوات: عفواً! لم أفهم».

نظرت شانتال إلى ذراعيه المفتولي العضلات والموشومين: امرأة عارية بثديين ضخمين جداً وأفعى تلتف حول جسدها.

كررت (مخففة من مطلبها): «الموسيقى! هل تستطيع أن تخفضها؟».

أجاب الرجل قائلاً: «الموسيقى؟ ألا تعجبك؟».

ورأت شانتال الفتى الذي انتقل، في هذه البرهة، إلى ماوراء الكونتوار يرفع صوت الروك أيضاً.

كان الرجل الموشوم قريباً جداً منها. كانت ابتسامته تبدو لها سيئة. استسلمت قائلة:

«كلا! ليس لدي شيء ضد موسيقاكم!».

وقال الموشوم: «كنت واثقاً من أنك تحبينها. بماذا ترغبين؟

قالت شانتال: لاأرغب بشيء، كنت أريد فقط أن أرى. عملكم لطيف.

من وراء ظهرها، قال الشاب ذو اللباس الأسود الذي كان قد غير مكانه، أيضاً وبصوت كريه العذوبة: إذن، لماذا لاتبقين؟

كان قد انتصب بين صفي الطاولات، في الممر الوحيد الذي يؤدي إلى الخارج. أثار تزلف صوته فيها نوعاً من الذعر. أحسّت أنها في فخ سوف ينغلق عليها بعد بضع لحظات. أرادت أن تتصرف بسرعة. ومن أجل أن ترحل، سوف تكون مرغمة على المرور من حيث سد عليها الفتى الطريق. وتقدمت كما لو أنها قد أرادت المضي، مباشرة، نحو دمارها. وشعرت بقلبها يخفق وهي ترى ابتسامته المتملقة. وعند آخر لحظة فقط، خطا إلى الجانب خطوة وتركها تمر.

8

الخلط بين المظهر الجسدي للمحبوبة ومظهر أخرى: كم مرة سبق له أن عاش ذلك! عاشه، دائماً، بالدهشة ذاتها: هل الفرق بينها وبين الأخريات، إذن، بهذه الضآلة؟ كيف يمكن أن لايعرف كيف يتعرف على طيف أحب الكائنات إليه، طيف الكائن الذي يعده لامثيل له؟

رآها، أخيراً، عندما فتح باب الغرفة. إنها هي هذه المرة، دون أدنى شك، ولكنها هي التي لاتشبه نفسها كذلك، كما لو أن المرأة التي لوح لها على الشاطئ ستحل منذ الآن ودائماً محل المرأة التي يحبها، كما لو كان يجب أن يُعاقَب على عجزه عن التعرف عليها.

- ماذا هناك؟ ماذا جرى؟

قالت: لاشيء.

- كيف لاشيء؟ أنت متغيرة تماماً.

- نمت نوماً سيئاً جداً. لم أكد أن أنام، أمضيت صبيحة سيئة.

ـ صبيحة سيئة؟ لماذا؟

ـ لالشيء، لالشيء حقاً!

ـ قولي لي.

ـ ولكن لاشيء حقاً.

ألحّ، وانتهت إلى القول: «لم يعد الرجال يديرون وجوههم نحوي».

نظر إليها عاجزاً عن فهم ماتقوله، ماتعنيه. إنها حزينة لأن الرجال لم يعودوا يديرون وجوههم نحوها؟ أراد هو أن يقول: وأنا؟ وأنا؟ أنا الذي بحثت عنك كيلومترات على الشاطئ، أنا الذي صرخت باسمك باكياً والقادر على الركض خلفك في كل الكوكب؟

لم يقل ذلك. وبدلاً من هذا كرر ببطء وبصوت منخفض، الكلمات التي تلفظت بها: «لم يعد الرجال يديرون وجوههم نحوك. أهذا، حقاً، مايجعلك حزينة؟».

احمرّت، احمرّت كما لم يشاهدها منذ زمن طويل. هذا الاحمرار يبدو كاشفاً عن رغبات غير معترف بها، رغبات من العنف بحيث أن شانتال لاتستطيع أن تقاومها، وكررت: «نعم، لم يعد الرجال يديرون وجوههم نحوي».

9

عندما ظهر جان مارك على العتبة، ساورتها أقوى رغبة في أن تكون مرحة، أرادت تقبيله ولكنها لم تكن تستطيع ذلك. فقد كانت، منذ مرورها بالمقهى، متوترة، متشنجة وغارقة في مزاجها القاتم إلى حد كانت تخشى، معه، أن تبدو مبادرة الحب التي من شأنها أن تحاول إبداءها مقسورة ومزيفة.

ثم سألها جان مارك: «ماذا جرى؟» قالت له إنها نامت نوماً سيئاً وهي تعبة، ولكنها لم تنجح في إقناعه. واصل استجوابها. ولما كانت لاتعرف كيف تفلت من هذا التحقيق، فقد أرادت أن تقول له شيئاً مضحكاً وعند ذلك عادت إلى ذهنها نزهتها الصباحية. والرجال الذين تحولوا إلى أشجار أطفال ووجدت في رأسها العبارة التي بقيت فيه كشيء صغير منسي: «لم يعد الرجال يديرون وجوههم نحوي». لجأت إلى هذه العبارة لتتجنب كل مناقشة جدية. حاولت أن تقولها بأخف مايمكن من الصوت، ولكن صوتها فاجأها بكونه مريراً وكئيباً. كانت تحس بهذه الكآبة ملتصقة على وجهها وعرفت فوراً أنه سيساء فهمها.

رأته ينظر إليها مطولاً وبرزانة، وأحست بأن هذه النظرة تشعل النار في أعماق جسدها، وسرعان ماانتشرت هذه النار إلى بطنها وصعدت إلى صدرها وأحرقت خديها، وسمعت جان مارك يكرر وراءها: «لم يعد الرجال يديرون وجوههم نحوك. أهذا حقاً مايحزنك؟».

أحست بأنها كانت تحترق كجذوة وأن العرق يسيل على جلدها. كانت تعلم أن هذا الاحمرار يعطي جملتها أهمية مبالغاً فيها. كان لابدّ أن يظن أنها بهذه الكلمات (آه كم كانت بريئة!)، تفضح نفسها وتريه ميولها السرية التي كانت، الآن، تحمر خجلاً منها. إنه سوء تفاهم، ولكنها لاتستطيع شرحه له لأنها تعرف هجمة النار هذه منذ بعض الوقت فعلاً. لقد رفضت دائماً أن تعطيها اسمها الحقيقي، ولكنها لم تعد، هذه المرة، تشك في معناها ولاتريد، لهذا السبب نفسه، أن تتحدث عنها.

كانت موجة الحرارة طويلة وكشفت عن نفسها، وهو ذروة السادية تحت أنظار جان مارك. لم تعد تعرف ماذا تفعل لتختبئ، لتغطي نفسها، لتحوِّل النظرة المتفحصة. كررت، وقد بلغت أقصى

الاضطراب، الجملة نفسها على أمل تصحيح مافاتها في المرة الأولى، وأنها سوف تنجح في التلفظ بها بخفة، كمزحة، كمحاكاة: «نعم، الرجال لم يعودوا يديرون وجوههم نحوي». كان ذلك تعباً ضائعاً، فالجملة بدت، في رنينها، أشد كآبة مما كانت عليه قبلاً.

اشتعل في عيني جان مارك، فجأة، نور تعرفه، وكان كمصباح خلاص: «وأنا؟ كيف تستطيعين أن تفكري بالذين لم يعودوا يديرون وجوههم نحوك في حين أني، أنا، أركض باستمرار وراءك حيثما كنت؟».

أحست بالخلاص لأن صوت جان مارك هو صوت الحب، الصوت الذي نسيت وجوده في لحظات البلبلة هذه، صوت الحب الذي يداعبها ويسترخي بتوترها ولكنها لم تكن مستعدة له بعد، كما لو كان هذا الصوت يأتي من بعيد، من أبعد مما ينبغي. وسوف تحتاج لسماعه خلاله برهة طويلة، أيضاً، لتستطيع الإيمان به.

ومن أجل هذا تيبست حين أراد ضمها بين ذراعيه. خافت من أن تلتصق به، خافت من أن يفشي جسمها الدبق سرها. كانت البرهة أقصر مما ينبغي ولم تعطها الوقت اللازم لضبط نفسها. وهكذا صدته قبل أن تستطيع منع حركتها بوجل، ولكنها صدته بثبات أيضاً.

10

هذا اللقاء المفسد الذي جعلهما عاجزين عن العناق: هل حدث حقاً؟ أما زالت شانتال تتذكر بضع لحظات عدم التفهم هذه؟ أما زالت تتذكر العبارة التي أوقعت الاضطراب، في جان مارك؟ أبداً! لقد نسيت الحادثة كألوف غيرها. فبعد ساعتين تناولا طعام الغداء في

مطعم الفندق وتحدثا، بمرح عن الموت. طلب مدير شانتال إليها تفكر في حملة إعلانية لمؤسسة لوسيان دوفال لدفن الموتى.

قالت ضاحكة: يجب أن لاتضحك من ذلك!

- وهم؟ هل يضحكون؟

- من؟

- زملاؤك. الفكرة، في حد ذاتها، مضحكة بداهة، فكرة الإعلان عن الموت! ومديرك، هذا التروتسكي العجوز، أما زلت تقولين إنه ذكي؟

- إنه ذكي، منطقي كمبضع. إنه يعرف ماركس والتحليل النفسي والشعر الحديث وهو يحب أن يروي أن تياراً من شعر الحياة اليومي كان موجوداً في أدب العشرينات في ألمانيا أو لا أدري أين. والإعلان، في رأيه، يحقق، بعدياً، هذا البرنامج الشعري. إنه يحوّل موضوعات الحياة البسيطة إلى شعر. وبفضله أخذ اليوم يغني.

- ما الذي تجدينه ذكياً في هذه التفاهات؟

- لهجة الاستفزاز الماكرة التي يقولها بها.

- هل يضحك أم لا عندما يطلب إليك أن تعلني عن الموت؟

- الابتسامة التي تعلن تباعداً تجعل الأمر لبقاً، وكلما زادت قوتك زاد شعورك بأنك مرغم على اللباقة. لكن ليس لابتسامته المتباعدة أدنى علاقة بضحكة مثل ضحكتك. وهو حساس جداً لهذا الفرق الصغير.

- كيف يتحمل، إذن، ضحكتك أنت؟

- ولكن، ماذا تظن ياجان مارك؟ أنا لاأضحك. لاتنسَ أن لي

وجهين. لقد تعلمت أن أستمد من ذلك بعض المتعة، ولكن امتلاك المرء لوجهين ليس سهلاً. إنه يقتضي انضباطاً! يجب أن تفهم أن كل ماأفعله، برضاي أو دونه، أفعله طامحة إلى أن أفعله جيداً ولو لم يكن ذلك إلا من أجل ألا أفقد وظيفتي. ومن الصعب جداً أن تعمل إلى حد الكمال وأن تحتقر هذا العمل في الوقت نفسه.

قال جان مارك: أوه! أنت قادرة على ذلك، أنت عبقرية.

ـ نعم، أستطيع أن أمتلك وجهين، ولكني لاأستطيع أمتلاكهما في الوقت نفسه. معك أحمل الوجه الذي يسخر. وعندما أكون في المكتب أحمل الوجه الرصين. إني أتلقى ملفات الناس الذين يطلبون عملاً لدينا. يجب أن أوصي بهم أو أعطي رأياً سلبياً. هناك بينهم من يعبر عن نفسه، في رسالته، بلغة مكتملة، جداً في حداثتها، مع الكليشات والتعابير المهنية، وبكل التفاؤل الإجباري. لست في حاجة إلى رؤية هؤلاء ولا إلى التحدث معهم كي أكرههم. ولكني أعلم أنهم هم الذين سيعملون جيداً وبحماسة. ثم هناك الذين كانوا سيكرسون أنفسهم، في أزمنة أخرى، بالتأكيد، للفلسفة، لتاريخ الفن، لتعليم الفرنسية، ولكنهم يبحثون اليوم، لعدم وجود ماهو أفضل، عن يأس تقريباً، عن عمل لدينا. أعلم أنهم يحتقرون سراً الوظيفة التي يلتمسونها وهم إذن إخوتي، ويجب أن أحسم.

ـ وكيف تحسمين؟

ـ أوصي بالذي أتعاطف معه، مرة، وبالذي سوف يعمل جيداً مرة أخرى. أتصرف، نصف الوقت، كخائنة لمؤسستي، وكخائنة لنفسي في النصف الآخر. فأنا خائنة مزدوجة. ولاأعد حالة الخيانة المزدوجة هذه فشلاً، بل إنجازاً. ذلك أني أتساءل كم من الوقت أيضاً سأبقى قادرة على الاحتفاظ بوجهيّ الاثنين؟ إنه أمر منهك. وسوف يأتي يوم لن يكون لي فيه سوى وجه واحد، أسوأ

الوجهين، بالتأكيد: الرصين، الموافق. هل ستبقى على حبي؟

قال جان مارك: لن تفقدي وجهيك أبداً».

ابتسمت ورفعت كأسها قائلة: «فلنأمل في ذلك!»».

قرعا كأسيهما وشربا، ثم قال جان مارك: «وفضلاً عن ذلك، فإني أحسدك، تقريباً، لقيامك بالإعلان عن الموت. منذ صباي وأنا مفتون دون أن أعلم لماذا بالأشعار حول الموت. تعلمت منها الكثير عن ظهر قلب. أستطيع أن أتلو عليك بعضاً منها، هل تريدين؟ سوف يمكنك استخدامها. هناك، مثلاً، هذان البيتان لبودلير، أنت تعرفينهما حتماً:

أيها الموت، أيها القبطان العجوز، حان الوقت! فلنرفع المرساة! هذا البلد يبعث فينا السأم، أيها الموت! فلنبحر!

قاطعته شانتال قائلة: أعرفهما، أعرفهما. هذا شعر جميل، ولكنه ليس كذلك بالنسبة إلينا.

ـ كيف؟ تروتسكيّك العجوز يحب الشعر! وهل هناك تعزية لمحتضَر من قوله لنفسه: هذا البلد يبعث فينا السأم؟ أتخيل هذه الكلمات بالنيون فوق أبواب المقابر. تكفي، من أجل إعلانك، تعديلات خفيفة: هذا البلد يبعث فيكم السأم. لوسيان دوفال، القبطان العجوز، سيؤمِّن الإبحار.

ـ ولكن مهمتي ليست إرضاء المحتضرين. فليسوا هم الذين سيطلبون خدمات لوسيان دوفال. والأحياء الذين يدفنون موتاهم يريدون الاستمتاع بالحياة لا الاحتفال بالموت. احفظ هذا جيداً: إن ديننا هو تقريظ الحياة. كلمة «حياة» هي ملكة الكلمات، الكلمة ـ الملكة المحاطة بكلمات كبيرة أخرى: كلمة «مغامرة»، كلمة «مستقبل» وكلمة «أمل»! وبالمناسبة، هل تعرف الاسم الرمزي

للقنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما؟ إنه Little Boy[*] ! إنه لعبقري ذاك الذي اخترع هذا الرمز! لم يكن بالإمكان إيجاد ماهو أفضل: الصبي الصغير، الولد، الطفل. فلا توجد كلمة أشد حناناً، أشد تأثيراً، أشد امتلاء بالمستقبل.

قال جان مارك مسروراً: نعم! إني أرى ذلك. إن الحياة نفسها هي التي حامت فوق هيروشيما في شخص صبي صغير يرسل فوق الخرائب بول الأمل الذهبي. على هذا النحو دُشن عهد مابعد الحرب». ورفع كأسه قائلاً: «فلنشرب!».

11

كان ابنها في الخامسة من عمره عندما دفنته. وفيما بعد، أثناء العطلة، قالت لها شقيقة زوجها: «أنت أكثر حزناً مما ينبغي! يجب أن تحصلي على طفل آخر، فلا توجد طريقة أخرى للنسيان». اهتصرت ملاحظة شقيقة زوجها قلبها. طفل: وجود دون ترجمة حياة، ظل يمّحي، سريعاً، في خلفه. ولكنها لم تكن تريد أن تنسى ابنها. كانت تدافع عن فرديته التي لابديل لها، تدافع ضد المستقبل، عن ماض، الماضي المهمل والمحتقر للميت الصغير المسكين. بعد أسبوع، قال لها زوجها: «لاأريد أن تسقطي أمام اكتئابك. يجب أن يكون لنا طفل آخر، وسوف تنسين فيما بعد». سوف تنسين: لم يكن يسعى حتى إلى إيجاد صيغة أخرى؟ وعند ذلك وُلِدَ لديها القرار بهجرانه.

كان واضحاً لديها أن زوجها، الرجل السلبي، لم يكن يتحدث باسمه، بل باسم المصالح الأعم، مصالح الأسرة الكبيرة التي كانت تسيطر عليها شقيقته. كانت هذه الأخيرة تعيش، آنذاك، مع زوجها

(*) الصبي الصغير.

الثالث وولدين من زيجتيها السابقتين، بل إنها نجحت في البقاء على علاقات طيبة مع زوجيها السابقين وفي جمعهما حولها، فضلاً عن أُسر أخوتها وأبناء عمها. وكانت هذه الاجتماعات الهائلة تقام في ڤيلا ضخمة في الضواحي أثناء العطل. وحاولت أن تُدخل شانتال في العشيرة كي تصبح، تدريجياً ودون إدراك منها، عضواً فيها.

وهناك، في تلك الڤيلا الكبيرة، حثتها شقيقة زوجها ثم هذا الأخير على أن تنجب طفلاً آخر. وهناك، في غرفة نوم صغيرة، رفضت أن تضاجعه. كانت كل دعوة من دعواته الشبقة تذكرها بالحملة العائلية من أجل حمل جديد، وأصبحت فكرة ممارسة الحب معه بشعة. كان لديها الانطباع بأن كل أعضاء العشيرة، الجدّات والآباء وأولاد الأخت أو الأخ وأبناء العموم أو الخالات، يتسمعون من وراء الباب ويتفحصون، سراً، أغطية سريرهما ويفحصون تعبهما الصباحي.

كانوا كلهم قد أعطوا أنفسهم حق النظر في بطنها. بل إن أبناء الأخوة جُندوا كمرتزقة في هذه الحرب. قال لها أحدهم: «شانتال، لماذا لاتحبين الأطفال؟ فأجابت بخشونة وبرود: لماذا تظن أني لاأحبهم؟» لم يعرف ماذا يقول. وتابعت، ثائرة الأعصاب، قائلة: «من قال لك إني لاأحب الأطفال؟». أجاب ابن الأخ أمام نظرتها القاسية قائلاً بلهجة وجلة بقدر ماهي مقتنعة: «لو كنت تحبين الأطفال لأمكنك أن تحصلي عليهم».

بعد العودة من العطلة، تصرفت بتصميم: «أرادت، أولاً أن تسترد وظيفتها. كانت، قبل ولادة طفلها، قد درّست في الثانوية. وبما أن أجر العمل لم يكن جيداً، فقد عدلت عن استعادته وفضلت وظيفة لم تكن تتفق مع رغباتها (كانت تحب التعليم) ولكن أجرها يبلغ ثلاثة أضعاف الأولى. كان ضميرها يعذبها لخيانتها ذوقها

من أجل المال، ولكن، ما العمل: فقد كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة للحصول على استقلالها. إلا أن المال لايكفي للحصول عليه. فقد كانت تحتاج أيضاً إلى رجل، رجل يكون المثال الحي لحياة أخرى. ذلك أنها لم تكن تتخيّل أية حياة أخرى إذا كانت تريد أن تتخلص من حياتها السابقة.

وكان عليها أن تنتظر بضع سنوات قبل أن تلتقي جان مارك. وبعد خمسة عشر يوماً طلبت الطلاق من زوجها، الذي كانت دهشته كاملة. وعند ذلك سمتها شقيقة زوجها، بإعجاب ممزوج بالعداء، النمرة: «أنت لاتتحركين، لايعرف أحد شيئاً عما تفكرين فيه، وتضربين». وبعد ثلاثة أشهر، اشترت شقة أقامت فيها مع حبيبها مستبعدة كل فكرة زواج.

12

رأى جان مارك حلماً: كان خائفاً على شانتال، يبحث عنها، يركض في الطرقات، وأخيراً رآها، من خلال ظهرها، تمشي، تبتعد. لم يعد سوى على بضع خطوات منها، أدارت وجهها، ورأى جان مارك أمامه، مذهولاً، وجهاً آخر، وجهاً غريباً وغير محبب. ومع ذلك، فلم يكن وجه شخص آخر، كان وجه شانتال، شانتاله. ما كان هناك أدنى شك، ولكنها شانتال بوجه امرأة مجهولة، وهذا شيء قاسٍ، شيء لايمكن تحمل قسوته. عانقها، ضمها إلى جسده وكرر أمامها باكياً: «شانتال، صغيرتي شانتال، صغيرتي شانتال!» كما لو أنه يريد، بتكراره لهذه الكلمات، أن يحقن هذا الوجه المتحول بمظهره القديم المفقود، بهويته الضائعة.

هذا الحلم أيقظه. لم تكن شانتال في السرير، وكان يسمع من الحمام الأصوات الصباحية. وأحس، وهو مايزال تحت سيطرة

الحلم، بحاجة ملحة لكي يراها. نهض وذهب نحو باب الحمام المنفرج. توقف عنده ونظر إليها كمتلصص شره إلى اختلاس مشهد حميم: نعم، كانت شانتاله كما عرفها دائماً: منحنية فوق المغسلة تنظف أسنانها بالفرشاة، تبصق لعابها الممزوج بالمعجون، وكانت متركزة على نشاطها بدرجة من الإضحاك والطفولية إلى حد ابتسم معه جان مارك. ثم دارت على عقبيها كما لو أنها قد أحست بنظرته، ورأته عند الباب، استاءت، ثم انتهت إلى تركه يقبّلها على فمها الذي مازال أبيض تماماً.

قالت له: «هل ستأخذني هذا المساء من الوكالة؟». حوالى الساعة السادسة، دخل إلى الردهة، مر بالرواق وتوقف عند باب مكتبها. كان منفرجاً كباب الحمام صباحاً. رأى شانتال مع امرأتين، زميلتيها. ولكنها لم تعد نفسها في الصباح. فقد كانت تتكلم بصوت أقوى لم يكن معتاداً عليه، كما كانت حركاتها أسرع، أشد حسماً، أشد سيطرة. كان قد استعاد، في الصباح، الكائن الذي أتى على فقدانه ليلاً والذي يتغير، من جديد، في نهاية بعد الظهيرة هذه تحت أبصاره.

دخل. ابتسمت له، لكن هذه الابتسامة كانت مرسومة، وشانتال كأنها قد جمدت. التقبيل على الخدين أصبح، في فرنسا، منذ حوالى عشرين سنة اصطلاحاً شبه الزامي وشاقاً، بالنسبة لمن يتبادلون الحب. ولكن، كيف السبيل إلى تجنب هذا الاصطلاح عندما يتم اللقاء أمام عيون الآخرين ولايريد الشخصان أن يُظنا زوجين متخاصمين؟ اقتربت شانتال، بارتباك، وقدمت له خديها. كانت الحركة مصطنعة وتركت لديها مذاق الزيف. خرجا ولم تعد شانتال تلك التي كان يعرفها إلا بعد برهة طويلة.

الأمر هكذا دائماً: فبين اللحظة التي يراها فيها من جديد وتلك التي يتعرف فيها عليها كما يحبها درب يجب اجتيازه. لدى لقائهما

الأول في الجبل، أسعفه الحظ بتمكنه من الانفراد بها فوراً تقريباً. هل كان من شأنه أن يتعرف فيها على الكائن المحبوب لو أنه قد عاشرها، قبل هذا اللقاء المنفرد، كما كانت مع الآخرين؟ لو لم يعرفها إلا في الوجه الذي تبديه لزملائها ورؤسائها ومرؤوسيها، هل كان من شأن هذا الوجه أن يحرك عواطفه ويسحره؟ ليس لديه جواب عن هذين السؤالين.

13

ربما كانت جملة: «لم يعد الرجال يديرون وجوههم نحوي»، قد نُقشت فيه بهذه القوة بسبب حساسيته المفرطة لهذه اللحظات من الغرابة: فلم يكن يمكن لشانتال أن تعرف وهي تتلفظ بها. هذه العبارة لاتشبهها. ووجهها لم يكن، بدوره، يشبهها، كما لو كان شريراً، مسناً. في البدء تكوّن لديه ارتكاس غيرة: كيف يمكنها التأسف لكون الآخرين لم يعودوا يهتمون بها في حين أنه كان، هذا الصباح بالذات، مستعداً لقتل نفسه على الطريق من أجل أن يكون معها في أسرع وقت ممكن؟ ولكنه انتهى، بعد أقل من ساعة، إلى أن يقول لنفسه: كل امرأة تقيس درجة تقدمها في العمر باهتمام الرجال بجسدها أو إعراضهم عنه. أليس من المضحك أن يهينه ذلك؟ ومع ذلك، ومع عدم شعوره بالإهانة، لم يكن متفقاً معها. ذلك أنه قد لاحظ آثار تقدم خفيف في العمر (فهي تكبره بأربع سنوات) في يوم لقائهما الأول. وجمالها الذي أدهشه إذ ذاك لم يجعلها تبدو أصغر من عمرها، بل يمكنه، بالأحرىالقول بأن عمرها كان يجعل جمالها أكثر إفصاحاً عن ذاته.

كانت جملة شانتال تتردد في رأسه، وكان يتخيل تاريخ جسدها: كان ضائعاً بين ملايين الأجساد الأخرى حتى اليوم الذي ألقت عليه فيه نظرة رغبة وسحبته من التعددية الضبابية. ثم

تضاعفت النظرات وأشعلت هذا الجسد الذي يعبر العالم، منذ ذلك الحين، مثل شعلة. إنه زمن مجدٍ مضيء، ولكن النظرات سرعان ما أخذت تندر، وسرعان ما أخذ النور ينطفئ شيئاً فشيئاً حتى اليوم الذي سيجوب هذا الجسد، وقد أصبح شفانياً، ثم شفافاً، ثم غير مرئي، الطرقات كعدمٍ صغير متنقل. وعلى هذا المسار الذي يقود من اللامرئية الأولى إلى الثانية، تكون عبارة «لم يعد الرجال يديرون وجوههم نحوي» الضوء الأحمر الذي يشير إلى أن انطفاء الجسد التدريجي قد بدأ.

عبثاً ما سيقول لها بأنه يحبها ويجدها جميلة، فلن تستطيع نظرته العاشقة أن تعزيها، لأن نظرة الحب هي نظرة العزلة. كان جان مارك يفكر في العزلة العشقية لكائنين مسنين أصبحا غير مرئيين من الآخرين: عزلة حزينة تستبق صورة الموت. كلا! إن ماتحتاج إليه ليس نظرة حب، بل هو طوفان النظرات المجهولة، الفظة، الشهوانية والتي يُلقى بها عليها دون تعاطف، دون اختيار، دون حنان ولاتهذيب، بصورة الزامية ومحتومة، هذه النظرة تُبقيها في مجتمع البشر. أما نظرة الحب فتنتزعها منه.

كان يفكر، بتبكيت ضمير، في بدايات حبهما السريعة بصورة تبعث على الدوار. لم تكن هناك حاجة لأن يعمل للاستيلاء عليها: فمنذ اللحظة الأولى كانت مستولى عليها. الالتفات نحوها؟ لماذا؟ لقد كانت إلى جانبه، تجاهه، قربه منذ البداية. منذ البداية كان الأقوى وكانت الأضعف. وهذه اللامساواة قد أودعت، في أسس حبهما، لامساواة غير مبررة، لامساواة جائرة. لقد كانت الأضعف لأنها الأكبر سناً.

14

في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها، كانت تحب

أحد المجازات. هل اخترعته هي نفسها، أم سمعته، أم قرأته؟ لاأهمية لذلك: كانت تريد أن تكون عطر وردة، عطراً منفتحاً وغازياً، كانت تريد أن تعبر، على هذا النحو، كل الرجال وأن تضم، عن طريق الرجال، الأرض كاملة. عطر وردة منفتح: مجاز المغامرة. هذا المجاز وُلِدَ على عتبة حياتها الراشدة كالوعد الرومنطيقي بمشاعية عذبة، كدعوة إلى السفر عبر الرجال. ولكنها لم تكن بطبيعتها امرأة مولودة لتبديل عشاق، وهذا الحلم المبهم، الشعري، نام فيها لدى زواجها الذي كان يُعلن عن نفسه هادئاً وسعيداً.

بعد ذلك بكثير، حين كانت قد هجرت زوجها وعاشت، منذ بضع سنوات، مع جان مارك، وجدت نفسها، ذات يوم معه على ضفة البحر: تناولا طعام العشاء خارجاً، على شرفة خشبية فوق الماء. احتفظت، من ذلك اليوم، بذكرى بياض حادة. كانت الألواح الخشبية والطاولات والكراسي والأغطية بيضاء كلها. بدت المرايا العاكسة مدهونة بالأبيض، وكانت المصابيح تشع بضوء أبيض على السماء الصيفية التي لم تكن قد أصبحت معتمة بعد. وحيث كان القمر، وهو أبيض أيضاً، يبيّض كل شيء حولها. وكانت في هذا الحمّام من البياض تحس بحنين لايقاوم إلى جان مارك.

حنين؟ كيف يمكن لها أن تحس بالحنين وهو تجاهها؟ كيف يمكن معاناة غياب من هو حاضر؟ (ربما أمكن لجان مارك أن يجيب: يمكن معاناة الحنين في حضور المحبوب إذا كان يتلامح للمرء مستقبل لايعود فيه المحبوب موجوداً، إذا كان موت المحبوب حاضراً من قبل بصورة غير مرئية).

خلال لحظات الحنين الغريب على ضفة البحر، تذكرت فجأة ابنها الميت وغمرتها موجة من السعادة. قد يخيفها هذا الشعور بعد قليل. ولكن أحداً لايستطيع شيئاً ضد المشاعر، فهي موجودة هنا، وتفلت من كل رقابة. يمكن للمرء أن يلوم نفسه على عمل، على

كلمة تلفظ بها، ولكنه لايستطيع أن يلوم نفسه على شعور لأنه، بكل بساطة، لايملك أية سلطة عليه. كانت ذكرى ابنها الميت تملؤها سعادة، ولم تكن تستطيع شيئاً خلاف التساؤل عما يعني ذلك. كانت الإجابة واضحة: فهو يعني أن وجودها إلى جانب جان مارك مطلق وقد استطاع أن يكون مطلقاً بفضل غياب ابنها. كانت سعيدة بموت ابنها. راودتها، وهي جالسة مقابل جان مارك، رغبة في الإفصاح عن ذلك بصوت مرتفع، ولكنها لم تجرؤ. فلم تكن واثقة من ردة فعله، وكانت خائفة أن يرى فيها وحشاً.

كانت تتذوق الغياب الكامل للمغامرات دون رغبة في مغامرات. تذكرت مجازها ورأت وردة تذبل، بسرعة، كما في فيلم سُرّعت صوره حتى لم يبق منها سوى ساق رقيقة، مائلة للسواد وتضيع، إلى الأبد، في عالم سهرتهما الأبيض: الوردة الممددة في البياض.

في المساء نفسه، بالضبط قبل أن تنام (كان جان مارك نائماً من قبل)، تذكرت، مرة أخرى، ابنها الميت، وتصاحبت هذه الذكرى، من جديد، بهذه الموجة الفاضحة من السعادة. قالت لنفسها إذ ذاك بأن حبها لجان مارك كان هرطقة، خرقاً لقوانين غير مكتوبة للجماعة البشرية التي كانت تبتعد عنها. قالت لنفسها إن عليها الاحتفاظ بالمبالغة في حبها سرية كي لاتوقظ غيظ الآخرين المُبغِضْ.

15

في الصباح، كانت دائماً الأولى التي تغادر الشقة وتفتح صندوق البريد تاركةً، فيه، الرسائل الموجهة إلى جان مارك وتأخذ رسائلها. في ذلك الصباح وجدت رسالتين: الأولى باسم جان مارك

(ألقت عليها نظرة سريعة: كان ختم بريد بروكسل) والثانية باسمها، ولكنها كانت بلا عنوان ولاطوابع. ينبغي أن يكون أحد قد جاء بها شخصياً. وبما أنها مستعجلة فقد وضعتها دون أن تقرأها في حقيبتها وأسرعت إلى الأوتوبوس. وعندما جلست فتحت المغلف. كانت الرسالة مؤلفة من جملة واحدة: «أتبعك كجاسوس، أنت جميلة جداً، جميلة جداً».

كان أول شعور مزعجاً. أحدهم يريد، دون استئذان، أن يدخل حياتها ويجتذب انتباهها إليه (سعة انتباهها محدودة وليس لديها مايكفي من الطاقة من أجل توسيعها)، وباختصار أن يتطفل عليها. ثم قالت لنفسها إن الأمر كان يدور، في نهاية المطاف، حول شيء تافه، فمن هي المرأة التي لم تتلق، ذات يوم، رسالة مشابهة؟ أعادت قراءة الرسالة، وتبين لها أن السيدة الجالسة إلى جانبها كانت تستطيع قراءتها أيضاً. أعادتها إلى حقيبتها وألقت نظرة حولها. رأت الناس جالسين ينظرون، بشرود، إلى الطريق من النافذة، وفتاتين تعرضان ضحكتهما، وكان فتى أسود، طويلاً وجميلاً، عند الباب، يواجهها، وامرأة غارقة في كتاب وكان أمامها، بالتأكيد، درب طويل.

في العادة، كانت في الأوتوبوس، تتجاهل كل الناس. وبسبب هذه الرسالة، أحست بنفسها مراقبة، وراقبت هي بدورها. أكان هناك، دائماً، من ينظر إليها بثبات كهذا الأسود اليوم؟ وكما لو أنه يعرف ما الذي أتت على قراءته، ابتسم لها. ماذا لو كان هو كاتب الرسالة؟ طردت بسرعة هذه الفكرة المغالية في عبثها ونهضت لتنزل في المحطة التالية. كان ينبغي عليها أن تمر من جانب الأسود الذي يسد الطريق إلى المخرج، وضايقها ذلك. وعندما أصبحت قريبة جداً منه، توقف الأوتوبوس فجأة وسعت خلال لحظة إلى حفظ توازنها، فقهقه الأسود الذي مازال يواجهها ضاحكاً. خرجت وقالت لنفسها: لم تكن هذه مغازلة بل سخرية.

هذه الضحكة الساخرة سمعتها طيلة اليوم كنذير سوء. نظرت إلى الرسالة، أيضاً، مرتين أو ثلاثاً، في مكتبها. وعندما عادت إلى البيت، تساءلت عما تفعله بها. هل تحتفظ بها؟ لماذا؟ هل تريها لجان مارك؟ إن من شأن ذلك أن يربكها، سيبدو الأمر كما لو أنها تريد أن تتباهى! هل تتلفها إذن؟ بالتأكيد. ذهبت إلى المرحاض ونظرت، وهي منحنية فوق الحوض، إلى السطح السائل. مزقت المغلف إلى عدة قطع وألقت به في الحوض وأنزلت الماء فوقه، ولكنها أعادت طي الرسالة وحملتها إلى غرفتها. فتحت خزانة الثياب الداخلية ووضعت الرسالة تحت حمالات صدرها. وسمعت، من جديد، وهي تفعل ذلك، ضحكة الأسود الساخرة وقالت لنفسها إنها تشبه كل النساء. وعلى الفور بدت لها حمالات صدرها مبتذلة وغبية الأنثوية.

16

في غضون أقل من الساعة، اطلع جان مارك، لدى وصوله إلى البيت، شانتال على ورقة نعي: «وجدتها هذا الصباح. مات ف.».

سرّت شانتال تقريباً، لكون رسالة أخرى، أكثر جدية، قد غطت المضحك في رسالتها. أخذت جان مارك، تحت ذراعها، وقادته إلى الصالون لتجلس تجاهه.

قالت شانتال: «أنتَ، على كل حال، متأثر.

قال جان مارك: لا، أو إني متأثر لأني لست متأثراً.

ـ ألم تسامحه حتى الآن؟

ـ لقد سامحته على كل شيء. ولكن الأمر لايدور حول هذا. حدثتكِ عن هذا الشعور الغريب بالفرح الذي شعرت به حين قررت، في السابق، ألا أعود إلى رؤيته. كنت بارداً كقطعة ثلج، وكنت أستمتع بذلك. وموته لم يغير شيئاً من هذا الشعور.

ـ أنت تخيفني. حقاً أنت تخيفني».

نهض جان مارك ليأتي بزجاجة الكونياك وكأسين. وبعد أن ابتلع جرعة، قال: «في نهاية زيارتي له في المستشفى، بدأ يروي ذكريات. ذكرني بما ينبغي أن أكون قد قلته عندما كنت في السادسة عشرة. في هذه اللحظة، فقط، فهمت المعنى الوحيد للصداقة كما تمارس اليوم. الصداقة ضرورية للإنسان من أجل حسن عمل ذاكرته. ربما كان تذكر المرء لماضيه الذي حمله معه دائماً هو الشرط الضروري لاحتفاظه، كما يقال، بتكامل أناه. من أجل ألا تتقلص هذه الأنا، وحتى تحافظ على حجمها، يجب سقاية الذكريات كما تسقى الزهور في أصيص، وهذه السقاية تقتضي اتصالاً منتظماً بشهود الماضي، أي بأصدقاء. إنهم مرآتنا، ذاكرتنا. لايُطلب منهم شيء ما سوى أن يُلمّعوا، من حين إلى آخر، هذه المرآة لنستطيع أن ننظر إلى أنفسنا فيها. ولكني أسخر مما كنت أفعله في الثانوية! مارغبت فيه، دائماً، منذ شبابي الأول، منذ طفولتي، كان قبل كل شيء، الصداقة كقيمة فوق كل القيم الأخرى. كنت أحب أن أقول: بين الحقيقة والصديق، أختار الصديق دائماً. كنت أقول ذلك استفزازاً، ولكني كنت مؤمناً به جدياً. أعلم اليوم أن هذا المبدأ متقادم. كان يمكن أن ينطبق على آخيل، صديق باتروكلوس، على فرسان الكسندر دوماس، حتى على سانشو الذي كان صديقاً حقيقياً لسيده على الرغم من كل خلافاتهما. ولكنه لم يعد ينطبق علينا. إني أمضي في تشاؤمي إلى حد أنني مستعد اليوم لتفضيل الحقيقة على الصداقة».

وبعد أن تذوق جرعة أخرى، قال: «كانت الصداقة في نظري البرهان على وجود شيء أقوى من الإيديولوجية، من الدين، من الأمة. كان الأصدقاء الأربعة، في رواية دوماس، في معسكرين متعارضين غالباً، مرغمين على أن يقاتلوا بعضهم بعضاً. ولكن ذلك لم يعكر صفو صداقتهم. لم يتوقفوا عن مساعدة بعضهم، سراً،

بدهاء، ساخرين من حقيقة معسكر كل منهم. لقد وضعوا الصداقة فوق الحقيقة، فوق القضية، فوق أوامر الرؤساء، فوق الملك، فوق الملكة، فوق كل شيء».

داعبت شانتال يده، ثم قال بعد وقفة: «دوماس كتب قصة الفرسان متراجعاً قرنين. أكان ذلك، فعلاً، لديه، الحنين إلى عالم الصداقة المفقود؟ أم أن زوال الصداقة ظاهرة أحدث؟».

ـ لاأستطيع أن أجيبك. الصداقة ليست مسألة النساء.

ـ ماذا تعنين؟

ـ ما أقوله. الصداقة مسألة الرجال. إنها رومنطيقيتهم وليست رومنطقيتنا».

ابتلع جان مارك جرعة كونياك ثم عاد إلى أفكاره: «كيف ولدت الصداقة؟ ولدت، بالتأكيد، كتحالف ضد الخصومة، تحالف من شأن الإنسان أن يكون دونه منزوع السلاح أمام أعدائه. ربما لم تعد هناك حاجة حيوية إلى مثل هذا التحالف.

ـ سيكون هناك، دائماً، أعداء.

ـ نعم، ولكنهم غير مرئيين، مغفلو الهوية، الإدارات والقوانين. ماذا يستطيع صديق من أجلك عندما يتقرر إنشاء مطار قرب نوافذك أو حين تسرّحين من عملك؟ إذا كان مايزال هناك من يساعدك، فإنه مغفل الهوية وغير مرئي، منظمة مساعدة اجتماعية، رابطة للدفاع عن المستهلكين، مكتب محامين. لم تعد الصداقة قابلة للاختبار بأي برهان. لم تعد تتوافر فرصة لبحث المرء عن صديقه الجريح في ساحة المعركة، ولا لامتشاق السيف للدفاع عنه ضد قطاع طرق. فنحن نجتاز حياتنا دون أخطار كبيرة، ولكن دون صداقة أيضاً.

ـ لو كان هذا صحيحاً لوجب أن يصالحك مع ف.

ـ أسلم طواعية بأنه لم يكن ليفهم مآخذي عليه لو عرّفته

عليها. لقد سكت عندما انقض الآخرون علي. لكن يجب أن أكون منصفاً: لقد اعتبَر صمته شجاعة. بل قيل لي إنه تباهى بكونه لم يسقط ضحية للذهان الذي ساد حيالي وبأنه لم يقل ماكان يمكن أن يؤذيني. فقد كان ضميره، إذن، مرتاحاً ويجب أن يكون قد أحس بنفسه مجروحاً عندما انقطعت، دون تفسير، عن رؤيته. أخطأت في مطالبتي له بأكثر من الحياد. فلو جازف بالدفاع عني في هذا الوسط الشرس والشرير، فإنه كان سيتعرض، هو نفسه، لفقدان الحظوة والنزاعات والمتاعب. كيف أمكنني أن أطلب هذا منه؟ لاسيما وأنه كان صديقي؟ لقد كان ذلك غير ودي من جانبي! ولنقل ذلك بطريقة أخرى: كان ذلك قلة تهذيب لأن الصداقة المفرغة من محتواها الماضي تحولت اليوم إلى عقد مجاملات متبادلة، باختصار إلى عقد تهذيب. فمن قبيل عدم التهذيب أن يُطلب من صديق شيء يمكن أن يضايقه أو يكون غير محبب إليه.

ـ نعم الأمر هو هكذا. لكن ينبغي أن تقوله دون مرارة، دون سخرية.

ـ أقوله دون سخرية، الأمر هكذا!

ـ إذا ضربتك الكراهية، إذا اتُهمت، أُلقي بك طعاماً للوحوش، فيمكنك توقع ردتي فعل من جانب الناس الذين يعرفونك: بعضهم سينضم إلى الطغمة، والآخرون سيتظاهرون، بتحفظ، بأنهم لايعرفون شيئاً، لايسمعون شيئاً بحيث ستستطيع الاستمرار في رؤيتهم والتحدث إليهم. هذه الفئة الثانية، المتحفظة، المرهفة، هي فئة أصدقائك، أصدقاء بالمعنى الحديث للكلمة. استمع إلي ياجان مارك، هذا الأمر أعرفه منذ البداية».

17

على الشاشة تُرى مؤخرة في وضع أفقي، جميلة، مثيرة

جنسياً، في لقطة مكبرة. هناك يد تداعبها بحنان متذوقة جلد هذا الجسد العاري، المكرس، المستسلم. ثم تبتعد الكاميرا ويُرى الجسم كاملاً، راقداً على سرير. صغير: إنه رضيع تنحني فوقه أمه. وفي سلسلة اللقطات التالية، ترفعه وتقبل شفتاها المنفرجتان فم الرضيع الرخو، الرطب، المفتوح إلى آخر حد. وفي هذه اللحظة، تقترب الكاميرا، فتصبح القبلة نفسها، المعزولة، المبكرة، فجأة، قبلة حب حسية.

هنا أوقف لوروا الفيلم: «نحن نسعى دائماً وراء أغلبية، كالمرشحين للرئاسة في الولايات المتحدة خلال حملة انتخابية. إننا نضع نتاجاً في الدائرة المسحورة، صوراً قادرة على جمع أغلبية من المشترين. وفي البحث عن الصور، لدينا ميل إلى المبالغة بقيمة الجنس. إني أحذركم: فلا تستمتع، حقاً، بالحياة الجنسية سوى أقلية صغيرة جدا».

توقف لوروا ليتذوق المفاجأة لدى مجلس المعاونين الصغير الذي يستدعيه، مرة في الأسبوع، إلى ندوة حول حملة أو لقطة أو إعلان. وهم يعرفون، منذ زمن طويل، أن مايسر رئيسهم ليس موافقتهم العاجلة، بل دهشتهم. ومن أجل ذلك، تجرأت سيدة أنيقة تلبس عدة خواتم في أصابعها المكتهلة على مناقضته: «كل الاستبارات تؤكد العكس!».

قال لوروا: بالتأكيد. إذا استجوبك أحدهم، ياسيدتي العزيزة، في موضوع حياتك الجنسية، فهل ستقولين الحقيقة؟ حتى لو كان من يطرح عليك السؤال لايعرف اسمك، حتى لو استجوبك هاتفياً ولايراك، فإنك سوف تكذبين: «هل تحبين المضاجعة؟ ـ جداً! ـ كم مرة؟ ـ ست مرات يوميا! ـ هل تحبين الطرق الحيوانية؟ إلى حد الجنون!». ولكن كل هذا ترَّهات! الشبقية، تجارياً، شيء مبهم لأنه إذا اشتهى كل الناس الحياة الشبقية، فإن كل الناس أيضاً

يكرهونها بسبب بلاياها وإحباطاتها وشهواتها وعقدها وعذاباتها».

أراهم، من جديد، السلسلة نفسها من اللقطات التلفزيونية. نظرت شانتال إلى الشفتين الرطبتين تلامسان، في لقطة مكبرة، الشفتين الرطبتين الأخريين وتبين لها (كانت تلك المرة الأولى التي تنتبه، فيها، إلى ذلك، بهذا الوضوح) إنها وجان مارك لم يقبّلا بعضهما، أبداً، بهذه الطريقة. وأدهشها، هي نفسها، ذلك: أهذا صحيح؟ ألم يقبِّلا، أبداً، على هذا النحو؟

بلى. كان ذلك عندما لم يكن أحدهما يعرف اسم الآخر. في الصالة الكبيرة لفندق في الجبل، بين أناس كانوا يشربون ويثرثرون، قالا لبعضهما تفاهات، ولكن نبرة صوتيهما أفهمتهما أن كلاً منهما يرغب في الآخر، وانسحبا إلى رواق خالٍ حيث تبادلا القبل دون كلمة واحدة. فتحت فمها ودفعت لسانها في فم جان مارك، مستعدة للعق كل ماقد تجده في الداخل. لم تكن الحمية التي أبداها لساناهما ضرورة حسية، بل تعجلاً إلى إعلام كل منهما الآخر بأنهما مستعدان لتبادل الحب، حالاً، كلياً، وحشياً ودون إضاعة الوقت. لم يكن للعابهما أدنى علاقة بالرغبة أو بالمتعة، بل كانا رسولين. لم تكن لديهما الشجاعة على أن يقول أحدهما للآخر بصوت مرتفع: «أريد أن أمارس الحب معك حالاً دون تأخير»، فتركا، إذن، للعابيهما التحدث باسمهما. من أجل هذا، لم يكن فمّاهما، أثناء عناقهما العشقي الأول (الذي تلى قبلتهما الأولى ببضع ساعات) يهتمان، احتمالاً (لم تعد تتذكر، ولكنها، مع التراجع بالزمن، شبه واثقة من ذلك)، ببعضهما، لم يكونا يتلامسان، يتبادلان اللعق، بل ولايتبينان هذا الإعراض الفاضح المتبادل.

أوقف لوروا العرض من جديد: «المشكلة هي إيجاد الصور التي تُبقي على الجاذب الشبقي دون أن تزيد حدة الإحباطات. هذه

هي الزاوية التي تهمنا، منها، هذه اللقطة: الخيال الجنسي مغرٍ، ولكنه محول فوراً إلى مجال الأمومة. ذلك أن الاتصال الجسدي الحميم، غياب السر الشخصي، امتزاج اللعاب، ليس حكراً على الشبقية الراشدة، فكل هذا موجود في العلاقة بين الرضيع وأمه، في هذه العلاقة التي هي الفردوس الأصلي لكل الأفراح الجسدية. وفي هذا الصدد، صُوِّرتْ حياة جنين داخل أم مقبلة. لقد كان الجنين، في وضعية بهلوانية يستحيل علينا تقليدها، يمارس لعق عضوه الصغير الخاص. فأنتم ترون أن الجنس ليس حكراً على الأجساد الفتية والمتينة البنيان التي تستثير غيرة مريرة. إن اللعق الذاتي لجنين سيثير حنان كل جدات العالم، حتى من كن أشدهن خشونة وتصنعاً للطهارة. ذلك أن الطفل هو أقوى، أوسع، أضمن قاسم مشترك بين كل الأغلبيات. والجنين، ياأصدقائي الأعزاء، أكثر من طفل، إنه الطفل النموذج، الطفل الأعلى!».

مرة أخرى عرض عليهم اللقطة نفسها، ومرة أخرى أحست شانتال بنفور خفيف من رؤية فمين رطبين يتلامسان. تذكرت أن الثقافة الشبقية، في الصين واليابان، كما رُوي لها، لاتعرف قبلة الفم المفتوح. فتبادل اللعاب ليس إذن حتمية للشبقية، بل نزوة، انحراف، قذارة خاصة بالغرب.

وعندما انتهى العرض، خلص لوروا إلى مايلي: «لعاب الأمهات، هذا هو الصمغ الذي سيوحد الأغلبية التي نريد تجميعها لنجعل منها زبائن لماركة روباشوف». وصححت شانتال مجازها القديم: ليس مايمر عبر البشر عطر وردة لامادياً، شاعرياً، بل اللعاب المادي، المبتذل الذي ينتقل، مع جيش الجراثيم، من فم العشيقة إلى فم عشيقها، ومن فم العشيق إلى زوجته، ومن الزوجة إلى الطفل، ومن الطفل إلى عمته أو خالته، ومن العمة أو الخالة، الخادمة في مطعم، إلى الزبون الذي بصقت في حسائه، ومن

الزبون إلى زوجته، ومن الزوجة إلى عشيقها، ومن هناك إلى أفواه أخرى بحيث أن كلاً منا غارق في بحر من لعابات تتمازج وتجعل منا جماعة لعابات واحدة، إنسانية واحدة رطبة ومتحدة.

18

في ذلك المساء، في ضجيج المحركات والأبواق، عادت إلى منزلها متعبة. فتحت باب البناية، نافدة الصبر إلى الصمت، فسمعت صرخات عمال وضربات مطرقة. كان المصعد متعطلاً. كانت تحس، وهي صاعدة، بالحرارة الكريهة تكتسحها، وضربات المطرقة التي يتردد صداها في كل قفص الدرج تشبه قرع طبول يصاحب هذه الحرارة، يتفاقم بها، يضخمها ويمجدها. توقفت، مبللة بالعرق، أمام باب الشقة وانتظرت دقيقة حتى لايراها جان مارك في هذا التنكر الأحمر.

قالت لنفسها: «نار فرن إحراق الجثث يقدم لي بطاقته». لم تخترع هي هذه الجملة. لقد عبرت ذهنها دون أن تعرف كيف حدث هذا. كررتها لنفسها عدة مرات وهي واقفة أمام الباب، في الضجة غير المنقطعة. لم تحب هذه الجملة، فقد بدا لها طابعها الجنائزي المتباهي سقيم الذوق، ولكنها لم تنجح في طردها.

سكتت المطارق أخيراً، وبدأت الحرارة تخف، ودخلت. قبّلها جان مارك، ولكن ضجة المطارق ترددت من جديد، على الرغم من أنها أُخمدت قليلاً جداً، حين كان يروي لها شيئاً ما. تكوّن لديها الانطباع بأنها مطاردة، بأنها لاتستطيع أن تختبئ في أي مكان. قالت، وجلدها مازال دبقاً، دون أية صلة منطقية: «نار فرن حرق الجثث هي الطريقة الوحيدة لعدم ترك أجسادنا تحت رحمتهم».

لاحظت نظرة جان مارك المتفاجئة وتبينت فظاظة ما قالته.

وبسرعة، بدأت تتحدث عن اللقطة التي رأتها وعما رواه لهم لوروا، وخاصة حول الجنين المصور داخل بطن الأم والذي نجح، في وضعية بهلوانية، في نوع من الاستمناء من الكمال بحيث لايستطيع أي راشد مجاراته فيه.

«جنين بحياة جنسية، تصور ذلك! ليس لديه بعد أي شعور، أية فردية، أي إدراك لشيء، ولكنه يحس فعلاً بدافع جنسي، وربما بمتعة. فجنسيتنا سبقت إذن شعورنا بأنفسنا. أنانا لم توجد بعد، ولكن شهوانيتنا هنا، من قبل. تصور أن هذه الفكرة قد أثارت انفعال كل زملائي! كانت الدموع في عيونهم أمام الجنين المستمني!

- وأنت؟

- أوه! لقد أحسست بالنفور، آه، ياجان مارك، بالنفور».

عانقته، وهي منفعلة بصورة غريبة، والتصقت به وبقيت هكذا بضع ثوان طويلة.

ثم تابعت: «هل يتبين لك أنك، حتى في بطن أمك الذي يقال إنه مقدس، لست آمناً. إنهم يصورونك، يتجسسون عليك، يُراقب استمناؤك، استمناؤك المسكين كجنين. لن تفلت منهم حياً، هذا أمر يعرفه كل الناس. ولكنك لاتفلت منهم حتى قبل ولادتك، كما لن تفلت منهم بعد موتك. أتذكر ما سبق أن قرأته في جريدة: اتُهم بالاحتيال شخص كان قد عاش تحت اسم أرستقراطي روسي كبير منفي. ومن أجل إفحامه، بعد موته، سحبوا من القبر الرفات القديمة لفلّاحة افتُرض فيها أن تكون امه. لقد شرحوا عظامها، فحصوا مورثاتها. أود، حقاً معرفة القضية النبيلة التي أعطتهم الحق في نبش قبر المرأة المسكينة، في التنقيب عبر عريها، هذا العري المطلق، عري الهيكل العظمي الفائق هذا. آه يا جان مارك، لاأحس إلا بالنفور، إلا بالنفور. هل تعرف قصة رأس هايدن؟ لقد قُطع من الجثة التي

كانت ماتزال حارة كي يستطيع عالم مجنون التنقيب في دماغه ويحدد، بدقة، موضع العبقرية الموسيقية. وقصة أينشتاين؟ كان قد كتب، بعناية، وصيته من أجل أن يحرق. وقد أطيعت رغبته، ولكن تلميذه الوفي والمخلص رفض أن يعيش دون نظرة المعلم. فقبل عملية الإحراق، انتزع العينين من الجثة ووضعهما في زجاجة كحول كي تنظرا إليه إلى أن يموت هو الآخر. من أجل ذلك قلت لك، منذ قليل، إنه لاتوجد سوى نار فرن إحراق الجثث حتى تفلت أجسادنا منهم. إنه الموت المطلق الوحيد. وأنا لاأريد موتاً آخر. أريد، ياجان مارك، موتاً مطلقاً».

بعد وقفة عادت المطارق لترن، مرة أخرى، في الغرفة.

«لن أتأكد من انقطاعي عن سماعها إلا وأنا محروقة.

ـ ماذا بك ياشانتال؟»

نظرت إليه، ثم أدارت له ظهرها وقد انفعلت مجدداً. لم تنفعل هذه المرة بما قالته، بل بصوت جان مارك المثقل برعايته لها.

19

في اليوم التالي، ذهبت إلى المقبرة (كما تفعل مرة واحدة، على الأقل، في الشهر) ووقفت أمام قبر ابنها. عندما تكون هناك، تتحدث إليه دائماً، وهذه المرة، قالت له، كما لو انها في حاجة إلى توضيح ذاتها، إلى تبرير نفسها: ياحبيبي، ياحبيبي لاتظن إني لاأحبك أو أني لم أحبك، ولكني، على وجه الدقة، لأني أحببتك، ماكان يمكن أن أصبح من أنا لو كنت ماتزال هناك. من المستحيل أن يكونْ للمرء ابن ويزدري العالم كما هو، لأن هذا العالم هو مابعث به إليه. الابن هو الذي نتعلق من أجله بالعالم، نفكر في مستقبله، نسهم طواعية في ضجاته واضطراباته، نأخذ غباوته

التي لادواء لها مأخذ الجد. بموتك حرمتني من متعة أن أكون معك، ولكنك، في الوقت نفسه، جعلتني حرة، حرة في مواجهتي للعالم الذي لاأحبه. وإذا كنت أستطيع أن أسمح لنفسي بألاّ أحبه، فذلك لأنك لم تعد هنا. أفكاري قاتمة، ولكنها لم تعد تستطيع أن تجلب عليك أية لعنة. أريد أن أقول لك، الآن، بعد تركك إياي هذه السنوات، بأنني فهمت موتك كهدية وقد انتهيت إلى قبولها، إلى قبول هذه الهدية المخيفة.

20

في صباح اليوم التالي، وجدت مظروفاً في العلبة بخط المجهول نفسه. لم تعد، في الرسالة، أية خفة مقتضبة. كانت تشبه محضراً طويلاً. فقد كتب مراسلها يقول: «يوم السبت، كانت الساعة التاسعة وخمس وعشرين دقيقة حين خرجت من منزلك مبكرة عن الأيام الأخرى. اعتدت أن أتبعك في المسافة بين بيتك والأوتوبوس، ولكنك أخذت، هذه المرة، الاتجاه المعاكس. كنت تحملين حقيبة ودخلت إلى المصبغة. يجب أن تكون صاحبة المصبغة تعرفك، وربما تحبك. لاحظتها منذ الطريق: أصبح وجهها مشرقاً كما لو كانت قد أفاقت من نعاس، لقد مازحتها، بالتأكيد، لأني سمعت ضحكتها، ضحكة سببتها أنت وخيل إلي أني أرى فيها انعكاس وجهك. ثم خرجت والحقيبة ممتلئة. أكانت كنزاتك أم شراشف أم ملابس داخلية؟ على كل حال، أعطتني حقيبتك الانطباع بشيء ما مضاف، صنعياً، إلى حياتك». وصف فستانها واللآلئ حول عنقها. «هذه اللآلئ لم أرها، أبداً، من قبل. إنها جميلة. لونها الأحمر يناسبك جيداً. إنه يفيض عليك نوراً».

هذه الرسالة كانت موقعة: .C.D.B. هذا الأمر حيرها. الرسالة

الأولى لم تكن تحمل توقيعاً وأمكنها أن تفكر في أن هذه المجهولية كانت، إن صح القول، صادقة: مجهول يوجه إليها تحية ثم سرعان مايختفي. ولكن التوقيع، حتى لو كان مختصراً، يشهد على نية التعريف عن نفسه، خطوة خطوة، ببطء، ولكنه بصورة محتومة. كررت لنفسها مبتسمة: C.D.B: سيريل ديدييه بورقيبة، شارل دافيد بربروس.

فكرت في النص: يجب أن يكون هذا الرجل قد تبعها في الطريق. فقد كتب يقول: «اتبعك كجاسوس». إذن، فقد كان يجب عليها أن تراه. ولكنها تنظر إلى الناس من حولها بقليل من الاهتمام، وبالأقل منه، أيضاً، في ذلك اليوم لأن جان مارك كان معها. وفضلاً عن ذلك، فهو الذي أضحك صاحبة المصبغة وحمل الحقيبة لاهي. وأعادت قراءة هذه الكلمات: «حقيبتك أعطتني الانطباع بشيء ما أضيف، صنعياً، إلى حياتك». كيف كانت الحقيبة «مضافة إلى حياتها» إذا لم تكن هي التي حملتها؟ هذا الشيء «المضاف إلى حياتها» أليس هو جان مارك نفسه؟ هل أراد مراسلها أن يهاجم، على هذا النحو، حبيبها؟ ثم تبينت، مسرورة، المضحك في ردة فعلها: إنها قادرة على الدفاع عن جان مارك حتى أمام عاشق خيالي.

لم تكن، كالمرة الأولى، تعلم ماذا تفعل بالرسالة، وتكررت رقصة التردد بكل أطوارها: تأملت حوض المرحاض الذي تأهبت للإلقاء بها فيه، مزقت المظروف إلى قطع صغيرة بددتها مع الماء، ثم طوت الرسالة وحملتها إلى غرفتها ودستها تحت حمالات صدرها. سمعت، وهي تنحني على الرف، الباب يفتح. أغلقت الخزانة بسرعة والتفتت: كان جان مارك على العتبة.

مضى نحوها، ببطء، ونظر إليها كما لم يفعل من قبل، بنظرة تركيز غير مستحب، وعندما أصبح قريباً جداً منها، أمسك بها من

مرفقيها ولم يكف، وقد أبقاها بعيدة عن جسده حوالى ثلاثين سنتمتراً، عن النظر إليها. وأربكها ذلك وعجزت عن قول أي شيء. وعندما أصبح ارتباكها لايحتمل، ضمها إليه وقال لها ضاحكاً: «كنت أريد أن أنظر إلى جفنك الذي يغسل قرنيتك كمسّاحة تغسل زجاج مقدمة سيارة».

21

منذ لقائه الأخير وهو يفكر فيها، في العين: نافذة النفس، مركز جمال الوجه، النقطة التي تتركز فيها هوية فرد، ولكنها في الوقت نفسه، أداة رؤية يجب، باستمرار، إن تُغسل، تُنظف، تُعالج بسائل خاص مزود بجرعة ملح. فالنظرة أكبر رائعة يملكها إنسان، تقاطع، إذن، بانتظام، من جانب حركة غسل آلية، كزجاج مقدمة سيارة تغسله مسّاحة. وفضلاً عن ذلك يمكن اليوم ضبط سرعة المسّاحة بحيث تقطعها وقفة عشر ثوان هي، تقريباً، إيقاع جفن.

ينظر جان مارك إلى عيون من يتحدث معهم ويحاول أن يراقب حركة الجفن، فيتبين له أن ذلك ليس سهلاً. لسنا معتادين على وعي الجفن. كان يقول لنفسه: لاشيء أراه أكثر مما أرى عيون الآخرين، أي الأجفان وحركتها. ومع ذلك فإني لاأحفظ هذه الحركة. إني آخذها من العيون الموجودة تجاهي.

وكان يقول لنفسه أيضاً: توصل الله، وهو يلهو بالعمل في ورشته مصادفة، إلى هذا النموذج الجسدي الذي نُرغم، جميعنا، لفترة قصيرة من الزمن، على أن نصبح روحه. ولكن أي مصير جدير بالرثاء هو كون المرء روح جسد مصنوع بخفة ولاتستطيع العين أن تراه دون أن تُغسل كل عشر ثوان أو عشرين ثانية! كيف

نصدق أن الآخر الموجود أمامنا كائن حر، مستقل، سيد لنفسه؟ كيف نصدق أن جسده هو التعبير الأمين عن روح تسكنه؟ من أجل التمكن من تصديق ذلك، اقتضى الأمر نسيان رفيف الجفن الأبدي، اقتضى نسيان ورشة التجريب التي جئنا منها، اقتضى الخضوع لعقد نسيان. الله نفسه هو الذي فرض ذلك علينا.

إلا أنه كان هناك، بالتأكيد، بين طفولة جان مارك وشبابه، فترة قصيرة لم يكن قد أخذ بعد فيها علماً بهذا الالتزام بالنسيان، وكان، فيها، ينظر مذهولاً إلى الجفن ينزلق فوق العين: تبين له أن العين ليست نافذة نرى بوساطتها روحاً وحيدة وعجائبية، بل أداة مضبوطة كان أحدهم قد وضعها موضع الحركة منذ أزمنة سحيقة القدم. كان ينبغي لبرهة وضوح الذهن المراهق هذا أن تكون صدمة. قال له ف. «توقفتْ، واجهْتني وقلت لي بلهجة طريفة الثبات: غالباً مايكفيني أن أرى كيف ترف عينها...». لم يكن يتذكر ذلك. كانت تلك صدمة مكرسة للنسيان. وبالفعل كان سينساها إلى الأبد لولا أن ذكره بها ف.

عاد إلى المنزل غارقاً في أفكاره وفتح باب غرفة شانتال، كانت ترتب شيئاً في خزانتها، وكان جان مارك يرغب في أن يرى جفنها يمسح عينها، عينها التي هي، بالنسبة إليه، نافذة روح لاتوصف. مضى نحوها، أمسكها من مرفقيها ونظر في عينيها. كانتا، فعلاً، ترفان، بل ترفان بدرجة كافية من السرعة كما لو كانت تعلم أنها تخضع لفحص.

رأى الجفن ينزل ويصعد بسرعة، بأكثر مما ينبغي من السرعة، وكان يريد استرداد إحساسه الخاص، إحساس جان مارك ابن السادسة عشرة الذي كان قد اعتبر هذه الآلية العينية محبِطة إلى حد يحمل على اليأس. ولكن سرعة الجفن غير الطبيعية وعدم الانتظام المفاجئ في حركاته كانا يثيران حنانه أكثر مما يخيبان أمله: كان يرى في مسّاحة جفِن شانتال، جناح روحها،

الجناح الذي يرتعش، الذي يذعر، الذي يتخبط. كان الانفعال مفاجئاً كبرق، وضم شانتال إليه.

ثم أرخى عناقه ورأى وجهها مرتبكاً، مثاراً، قال لها: «كنت أريد أن أنظر إلى جفنك الذي يغسل قرنيتك كمسّاحة تغسل زجاج مقدمة سيارة.

قالت، وقد استرخت فجأة: لاأفهم شيئاً مما تقول».

وحدثها عن الذكرى المنسية التي ذكرها صديقه غير المحبوب.

22

«عندما ذكرني ف. بالتأمل الذي يفترض أنني قمت به حين كنت طالباً ثانوياً، حدث لدي الانطباع بسماع شيء عابث تماماً.

قالت له شانتال: كلا! في حدود معرفتي لك، يجب بالتأكيد أن تكون قد قلت ذلك. كل شيء متناسب. هل تذكر دراستك الطب؟».

لم يُخفّض أبداً من قيمة اللحظة السحرية التي يكونها، بالنسبة للإنسان، اختيار مهنته. فلما كان يعلم، جيداً، بأن الحياة أقصر من أن يكون هذا الاختيار قابلاً للتصحيح، فقد أقلقه تبيّن أن مامن مهنة كانت تجتذبه إليها عفوياً. فحص بريبية مروحة الامكانيات المتوافرة: وكلاء النيابة الذين يكرسون كل حياتهم لاضطهاد الآخرين، المعلمون موضوع تعذيب الأطفال سيئي التربية، الفروع التقنية التي يحمل تقدمها، مع مزية صغيرة، قدرة هائلة على الأذى، ثرثرة العلوم الإنسانية المعقدة بقدر ماهي فارغة، العمارة الداخلية (كانت تجتذبه بسبب ذكرى جدّه الذي كان نجاراً) المستعبدة، كلياً، من جانب الأزياء الرائجة التي كان يمقتها، مهنة الصيادلة المساكين الذين اختُزِلوا إلى باعة علب وقوارير. وعندما كان

يتساءل: أية مهنة أختار لحياتي؟ كانت سريرته الداخلية تقع في أكثر أنواع الصمت إرباكاً. وإذا كان، في النهاية، قد حزم أمره على الطب، فإنه لم يكن يخضع لأية جاذبية سرية، بل لمثالية غيرية: كان يعدّ الطب العمل الوحيد المفيد، بلا مراء، للإنسان والذي كانت ضروب تقدمه التقنية تحمل الحد الأدنى من التأثيرات السلبية.

لم تتأخر الخيبات عندما كان عليه، خلال السنة الثانية، أن يُمضي وقته في قاعة التشريح. تلقى صدمة لم يشف منها أبداً. كان غير قادر على النظر إلى الموت مواجهة. ولكنه اعترف لنفسه، بعد ذلك بقليل، بأن الحقيقة كانت أسوأ أيضاً. فلم يكن قادراً على النظر إلى الجسد مواجهة، إلى عدم اكتماله القاتل غير المسؤول، إلى ساعة التحلل التي تضبط سيره، إلى دمه وأحشائه وألمه.

عندما تحدث إلى ف. عن اشمئزازه من حركة الجفن، كان في السادسة عشرة من عمره. وعندما قرر أن يدرس الطب كان في التاسعة عشرة. لم يعد في تلك الفترة، وقد سبق أن وقع عقد النسيان، يتذكر ماقاله أمام ف. قبل ذلك بثلاث سنوات. وكان هذا مؤسفاً بالنسبة إليه. كان يمكن لهذه الذكرى أن تُحذره، ويمكن أن تُفهمه أن اختياره للطب كان نظرياً تماماً، مقرراً دون أدنى معرفة للذات.

وهكذا درس الطب ثلاث سنوات قبل أن يتركه مع شعور بالغرق. ماذا يختار بعد هذه السنوات الضائعة؟ بماذا يتشبث إذا كانت سريرته الداخلية قد ظلت على صمتها كما من ذي قبل؟ هبط آخر مرة درج الكلية العريض الخارجي مع الشعور بأنه سيوجد وحده على رصيفٍ رحلت عنه كل القطارات.

23

كانت شانتال تنظر من حولها بتحفظ وكذلك بانتباه، لاكتشاف

هوية مراسلها. في زاوية شارعها، هناك حانة صغيرة: المكان المثالي لمن يريد التجسس عليها. من هناك يمكن رؤية مدخل منزلها والشارعين اللذين تمر بهما، كل يوم، ومحطة الأوتوبوس. دخلت، جلست وطلبت قهوة وفحصت الزبائن. رأت، على الكونتوار شاباً كان، حين دخولها، قد أشاح بعينيه. كان زبوناً منتظماً تعرف وجهه. بل تذكرت أن نظراتهما تلاقت في الماضي عدة مرات وأنه كان، بعد ذلك، يتظاهر بأنه لم يعد يراها.

وفي يوم آخر دلت عليه جارتها، فقالت: «ولكن هذا هو السيد دوبارو! ـ دوبارو أم بارو؟». لم تكن الجارة تعلم. «واسمه؟ هل تعرفينه؟». كلا، لم تكن تعرفه.

دوبارو! هذا اسم يناسب تماماً. وفي هذه الحالة لن يكون المعجب بها شارل ديدييه ولاكريستوف دافيد. وحرف الدال يمثل الإشارة إلى لقب نبالة. وقد لايكون لدوبارو سوى اسم أول واحد: سيريل دوبارو أو، وهو أفضل، شارل. تخيلت أسرة أرستقراطيين ريفيين مفلسين، أسرة فخورة، بصورة مضحكة، بالـ «دو» هذه. تصورت شارل دوبارو أمام الكونتوار، مظهراً لامبالاته، وقالت لنفسها إن هذه الـ «دو» تلائمه جيداً وإنها تقابل تماماً سلوكه الملول.

وبعد قليل، مشت في الطريق مع جان مارك، ووصل دوبارو تجاههما. كانت اللآلئ الحمراء حول عنقها. إنها هدية من جان مارك، ولكنها لم تكن تتزين بها إلا نادراً لأنها تجدها فاضحة جداً. انتبهت إلى أنها علقتها لأن دوبارو وجدها جميلة. يجب أن يفكر (وعن حق فوق ذلك!) بأنها تتزين بها بسببه هو، من أجله هو. نظر إليها نظرة سريعة ونظرت إليه، أيضاً، وهي تفكر في اللآلئ، واحمرّت. احمرّت حتى ثدييها وكانت واثقة من أنه لاحظ ذلك. ولكنهما كانا قد تجاوزاه وأصبح فعلاً بعيداً عنهما، وكان جان

مارك هو الذي دهش: «لقد احمررت! ولكن لماذا؟ ماذا جرى؟».

ودهشت هي أيضاً. لماذا احمرّت؟ خجلاً من إيلاء انتباه أكبر مما ينبغي لهذا الرجل؟ ولكن الانتباه التي توليه إياه ليس سوى فضول لاقيمة له! ياإلهي، لماذا تحمرّ، في هذه الأوقات الأخيرة، بهذا التكرار، بهذه السهولة، كمراهقة؟.

وهي مراهقة كانت تحمرّ كثيراً فعلاً. كانت في بداية مسيرة المرأة الفيزيولوجية، وجسدها يصبح شيئاً مربكاً تخجل منه. وعندما أصبحت راشدة نسيت الاحمرار. ثم أعلنت لها هبات الحرارة نهاية المسيرة، وجسدها يُخجلها من جديد. وبما أن خفرها قد استيقظ فقد أعادت تعلم الاحمرار.

24

وصلت رسائل أخرى، وتناقصت قدرتها على إهمالها. كانت ذكية، محتشمة، ليس فيها مضحك ولامتطفل. لم يكن مراسلها يريد شيئاً كما لم يكن يلح على شيء. بدا من الحكمة (أو المكر) بحيث يدع في الظل شخصيته الخاصة وحياته وعواطفه ورغباته. كان جاسوساً. لم يكن يكتب إلا حولها. لم تكن رسائل إغواء بل إعجاب. وإذا كان فيها إغواء فقد جرى تصّوره كدرب طويل. ومع ذلك كانت الرسالة التي تلقّتها أكثر جسارة: «افتقدت رؤيتك خلال ثلاثة أيام. عندما رأيتك من جديد، سحرتني مشيتك بالغة الخفة، بالغة التعطش للمرتفعات. كنت تشبهين اللّهَب التي يجب، كي تثبت وجودها أن ترقص وترتفع. كنت تسيرين، وأطرافك أطول من أي وقت مضى، محاطة باللهب، بلهب مرحة، مسكرة، منتشية، وحشية. أنا ألقي، وأنا افكر فيك، على جسدك العاري معطفاً من لهب. أستر جسدك الأبيض بمعطف كاردينال قرمزي. وأرسل بك، وأنت متدثرة على

هذا النحو، إلى غرفة حمراء، على سرير أحمر، ياكاردينالتي الحمراء، الكاردينالة كلية الجمال!».

بعد بضعة أيام، اشترت قميص نوم أحمر. كانت في المنزل وتنظر إلى نفسها في المرآة. تنظر إلى نفسها من كل الزوايا، ترفع، ببطء، حاشية قميصها ويتكون لديها الانطباع بأنها لم تكن قط في هذا الطول للأطراف، بأنه لم يكن جلدها قط بهذا البياض.

وصل جان مارك. دُهش عندما رآها تمشي نحوه بخطوة مغناج ومغرية، في قميص أحمر فاخر التفصيل، تنعطف عنه، تفلت منه، تدعه يقاربها لتهرب من جديد. وبما أنه ترك اللعبة تغويه، فقد طاردها في كل الشقة. وعلى الفور حل هنا الموقف السحيق القدم، موقف امرأة يطاردها رجل، وفتنه ذلك. ركضت حول الطاولة الكبيرة المستديرة، وقد أسكرتها، هي نفسها، صورة امرأة تركض أمام رجل يشتهيها، ثم تهرب إلى السرير وتشمر قميصها حتى العنق. أحبها في ذلك اليوم بقوة جديدة وغير متوقعة، وتكوّن لديها فجأة الانطباع بأن شخصاً ما موجود هنا، في الغرفة، يراقبهما بانتباه مجنون. رأت وجهه، وجه شارل دوبارو الذي فرض عليها قميصها الأحمر، الذي فرض عليها فعل الحب هذا، وصرخت، إذ تخيلته، من المتعة.

كانا الآن يتنفسان كل منهما إلى جانب الآخر، وكانت صورة الذي يتجسس عليها تثيرها. همست في أذن جان مارك شيئاً عن المعطف القرمزي الذي ارتدته فوق جسدها العاري تماماً لتعبر على هذا النحو، وهي الكاردينالة كلية الجمال، الكنيسة المكتظة بالناس. ولدى هذه الكلمات، أخذها من جديد ومارس معها الحب من جديد، متأرجحاً على أمواج الخيالات التي لم تنقطع عن ذكرها له.

ثم هدأ كل شيء. لم يبق أمام عينيها سوى قميصها الأحمر الذي عركه جسداهما في زاوية من السرير. وأمام عينيها نصف المغمضتين، تحولت هذه البقعة الحمراء إلى مسكبة ورود، وشمت العطر الواهي شبه المنسي عطر الوردة الذي يرغب في معانقة كل الرجال.

25

في اليوم التالي، يوم سبت، فتحت النافذة ورأت السماء رائعة الزرقة. أحست بنفسها سعيدة ومرحة وقالت، دون مقدمات لجان مارك الذي كان على أهبة الخروج:

ـ ماذا يمكن أن يكون بريتانيكوسي(*) المسكين يفعل الآن حقاً؟

ـ لماذا؟

ـ أما يزال داعراً؟ أما يزال حياً؟

ـ لماذا تتذكرينه؟

ـ لاأدري، هكذا.

مضى جان مارك وبقيت وحدها. ذهبت إلى الحمام، ثم نحو خزانتها تريد أن تجعل نفسها جميلة جداً. نظرت إلى الرفوف ولفت شيء ما انتباهها. كان شالها يستريح، على رف الثياب الداخلية، فوق كومة، مطوياً جيداً، في حين تذكر أنها ألقت به هناك بكل إهمال. هل رتب أحدهم حوائجها؟ الخادمة تأتي مرة واحدة في الأسبوع ولاتهتم مطلقاً بخزائنها. دهشت من موهبة الملاحظة

(*) بريتانيكوس هو شخصية في مسرحية شهيرة لراسين.

لديها وقالت لنفسها إنها تدين بها للتربية المكتسبة سابقاً، أثناء إقاماتها في ڤيلا العطلات. هناك، أحست بأنهم يتجسسون عليها إلى حد تعلمت معه، أن تتذكر، بالضبط الصورة التي كانت ترتب عليها حوائجها لتستطيع أن تتعرف على أدنى تغيير قد تتركه يد غريبة. نظرت إلى نفسها، راضية، في مرآة، وقد أسعدها أن يكون هذا الماضي قد انقضى، وخرجت. وفي الأسفل فتحت العلبة حيث كانت تنتظرها رسالة جديدة. وضعتها في حقيبتها وفكرت في المكان الذي ستقرؤها فيه. وجدت حديقة عامة صغيرة جلست، فيها تحت الأغصان الخريفية لشجرة زيزفون مصفرّة أحرقتها الشمس.

«... كعباك اللذان يرنان على الرصيف يجعلانني أفكر في الدروب التي لم أعبرها والتي تتشعب كأغصان شجرة. أيقظت فيّ هاجس شبابي الأول: كنت أتخيل الحياة أمامي كشجرة. كنت أدعوها آنذاك شجرة الاحتمالات. لاتُرى الحياة هكذا سوى خلال برهة قصيرة. ثم تظهر كطريق مفروضة نهائياً، كنفق لايمكن الخروج منه. ومع ذلك، فإن ظهور الشجرة القديم يبقى فينا على صورة حنين لايمحى. لقد ذكرتني بهذه الشجرة، وأريد، بالمقابل، أن أنقل إليك صورتها، أن أسمعك صوتها الفتان».

رفعت رأسها. كانت أغصان شجرة الزيزفون تنبسط فوقها كسقف ذهبي مزين بالعصافير، كما لو كانت الشجرة التي تحدثت عنها الرسالة. امتزجت الشجيرة المجازية، في ذهنها، بمجاز وردتها القديم. كان ينبغي لها أن تعود إلى البيت. وكإشارة وداع رفعت عينيها، مرة أخرى، نحو شجرة الزيزفون ومضت.

الحقيقة هي أن وردة مراهقتها الأسطورية لم تجلب لها الكثير من المغامرات، بل ولاتذكّرها بأي موقف مشخص خاص باستثناء الذكرى المضحكة بالأحرى، ذكرى انكليزي أكبر سناً منها بكثير

غازلها خلال نصف ساعة، منذ مالايقل عن عشر سنوات، أثناء زيارته للوكالة. ولم تعرف، إلا فيما بعد، شهرته كمتصيد كبير للنساء، كمشترك في حفلات الجنس الجماعي. ظل اللقاء دون نتائج باستثناء كونه قد أصبح موضوع ممازحات مع جان مارك (هو الذي أعطاه لقب بريتانيكوس) وأنه أضاء فيها بضع كلمات كانت حتى ذلك الحين، لاتهتم بها: كلمة «حفلة»، مثلاً، وكذلك كلمة «انكلترا» التي تمثل بالنسبة إليها، على عكس ماتوقظه لدى الآخرين، مكان المتعة والفجور.

مازالت تسمع، في طريق عودتها، صخب عصافير الزيزفون وترى الانكليزي الفاجر العجوز. تقدمت في ضباب هاتين الصورتين بخطوتها الكسلى حتى اقتربت من الشارع الذي تسكنه. وهناك، على مسافة حوالى خمسين متراً منها، أخرجت طاولات الحانة إلى الرصيف، وكان مراسلها الشاب جالساً هناك وحده دون كتاب، دون جريدة، لايفعل شيئاً، أمامه دورق من الخمر الأحمر وينظر في الفراغ بتعبير كسلٍ سعيد يقابل كسل شانتال. بدأ قلبها يخفق. كم كان ترتيب كل هذا شيطانياً! كيف أمكنه أن يعرف أنه سيلقاها بعد أن تكون، بالضبط، قد قرأت رسالته؟ اقتربت منه، من المتجسس على أمورها الحميمة مضطربة، كما لو كانت تمشي عاريةً تحت معطف أحمر. لم تعد تبعد عنه سوى بضع خطوات، وكانت تنتظر اللحظة التي سيعنفها فيها. ماذا ستفعل؟ لم ترد هذا اللقاء أبداً! ولكنها لاتستطيع الهرب راكضة كفتاة صغيرة خائفة. تباطأت خطواتها، حاولت ألاّ تنظر إليه (ياإلهي! إنها حقاً تتصرف كفتاة صغيرة، هل يعني ذلك أنها كبرت إلى هذا الحد؟)، ولكنه كان ينظر بشكل طريف في الفراغ بلا مبالاة إلهية، جالساً أمام إناء خمره، وبدا عليه أنه لايراها.

كانت قد أصبحت بعيدة عنه فعلاً، تتابع طريقها نحو البيت.

ألم يجرؤ دوبارو؟ أم هل سيطر على نفسه؟ ولكن كانت لامبالاته من الصدق بحيث لم تعد شانتال تستطيع أن تشك في ذلك: لقد أخطأت، أخطأت بصورة مضحكة.

26

ذهبت، مساءً، مع جان مارك إلى المطعم. كان على الطاولة المجاورة زوجان غائصان في صمت لانهاية له. معالجة صمت معروض أمام عيون الآخرين ليس شيئاً سهلاً. أين يجب أن يوجه هذان الاثنان أنظارهما؟ سيكون من المضحك أن ينظر كل منهما في عيني الآخر دون أن يقولا لبعضهما شيئاً. أيحدقان في السقف؟ سيبدو ذلك عرضاً لبكمهما. أيراقبان الطاولات المجاورة؟ سيجازفان بإلتقاء نظرات أمتعها صمتهما، وسيكون ذلك أسوأ أيضاً.

قال جان مارك لشانتال: «اصغي إليّ! ليس الأمر هو أنهما يتبادلان الكراهية، أو أن اللامبالاة حلت محل الحب. لاتستطيعين قياس المحبة المتبادلة بين كائنين بشريين بكمية الكلمات التي يتبادلانها. الأمر، بكل بساطة، هو أن رأسيهما فارغان. وربما كانا يرفضان، عن لباقة، أن يتحادثا لأنه ليس لديهما مايقال، خلافاً لعمتي المقيمة في بيريغورد. عندما ألتقي بها، تتكلم دون أدنى وقفة. حاولت أن أفهم طريقة ذلاقة لسانها. إنها تضاعف بالكلمات كل ماتراه وكل ماتفعله: إنها استيقظت صباحاً، لم تشرب سوى قهوة سوداء على الفطور، كون زوجها قد ذهب، بعد ذلك ليتنزه، تصور، ياجان مارك، حين عاد شاهد التلفزيون، تصور ذلك! قلّب بين الأقنية ثم تصفح كتباً بعد أن تعب من التلفزيون. وهكذا ـ تلك هي كلماتها ـ ينقضي الوقت لديه... أتعلمين ياشانتال، إني أحب كثيراً هذه الجمل البسيطة، العادية والتي هي

بمثابة تعريف لغز. هذه العبارة «وهكذا ينقضي الوقت لديه» عبارة أساسية. مسألتهما هي الوقت، جعل الوقت ينقضي، ينقضي من ذاته، وحده، دون جهد منهما، دون أن يُرغما، كمشاة منهكين، على أن يجتازاه بذاتهما. وهذا هو السبب الذي تتكلم من أجله، لأن الكلمات التي تقضي بها تجعل الوقت يتحرك بصمت، في حين أن الوقت يتجمد حين يبقى فمها مغلقاً، يخرج من الظلمة هائلاً، ثقيلاً ويخيف عمتي المسكينة التي تبحث بسرعة وقد اعتراها الهلع، عمن تستطيع أن تروي له أن ابنتها تعاني هموماً مع ابنها المصاب بالإسهال، نعم ياجان مارك، بالإسهال، الإسهال، ذهبت لرؤية طبيب، أنت لاتعرفه، إنه يسكن غير بعيد عنا، نحن نعرفه منذ عدد لابأس به من السنوات، نعم ياجان مارك، منذ عدد لابأس به من السنوات، لقد عالجني، أنا أيضاً، هذا الطبيب في الشتاء الذي أصبت فيه بالانفلوانزا، أنت تتذكر يا جان مارك، لقد أصابتني حمى مخيفة...».

ابتسمت شانتال، وروى جان مارك ذكرى أخرى: «كنت أكاد لاأبلغ الرابعة عشرة حين كان جدي، ليس النجار بل الآخر، يُحتضَر. خلال أيام، كان يخرج من فمه صوت لايشبه شيئاً، بل ولايشبه أنيناً لأنه لم يكن يتألم، ولايشبه الكلمات التي لم يكن من شأنه أن ينجح في التلفظ بها، كلا، لم يكن قد أضاع القدرة على الكلام. بكل بساطة، لم يكن لديه مايقوله، ماينقله إلى الآخرين، لم تكن لديه أية رسالة مشخصة، بل لم يكن لديه من يتحدث إليه، ولم يعد يهتم بأحد. كان وحده مع الصوت الذي يصدره، صوت آآآ لم يكن ينقطع إلا حين كان ينبغي عليه أن يتنفس الهواء. نظرتُ إليه كما لو كنت مسمراً، ولم أنسَ ذلك قط، لأنني، أنا الطفل الذي كنته، ظننت أني أفهم: هو ذا الوجود بوصفه وجوداً يواجه الزمن بوصفه زمناً. وفهمت أن هذه المواجهة تدعى الملل، ملل جدّي الذي كان يعبّر عن نفسه بهذا الصوت، بصوت آآآ هذا الذي لاينتهي لأن من

شأن الزمن أن يسحقه دون آآآ هذه، ولم يكن لدى جدّي ضد الزمن سلاح يشهره سوى آآآ هذه المسكينة التي لم تكن تنتهي.

- أتريد أن تقول إنه كان يموت ويملّ؟

- هذا ما أردت قوله».

تحدثا عن الموت، عن الملل، شربا نبيذ بوردو، ضحكا، تسليا، وكانا سعيدين.

ثم عاد جان مارك إلى فكرته: «ربما قلت إن كمية الملل، إذا كان الملل قابلاً للقياس، أعلى بكثير، اليوم، منها في السابق، لأنه ما كان يمكن التفكير في مهن الماضي، في نصيب كبير منها على الأقل، دون ارتباط عاطفي: الفلاحون العاشقون لأرضهم، جدّي ساحر الطاولات الجميلة، الحذاؤون الذين يعرفون عن ظهر قلب، أقدام كل الفلاحين، عمال الغابات، البستانيون، بل أفترض أن الجنود، أنفسهم، كانوا يقتلون، إذ ذاك، بشغف. لم يكن معنى الحياة مشكلة، كان معهم، بصورة طبيعية جداً، في ورشاتهم، في حقولهم. كانت كل مهنة قد خلقت عقليتها الخاصة، صورتها الخاصة في الوجود. الطبيب يفكر بصورة مختلفة عن الفلاح، للعسكري سلوك مختلف عن المعلم. أما اليوم، فكلنا متشابهون، كلنا موحَّدون باللامبالاة المشتركة حيال عملنا. هذه اللامبالاة أصبحت عاطفة، العاطفة الكبرى الجماعية الوحيدة في زمننا».

قالت شانتال: «ومع ذلك، قل لي، أنت نفسك حين كنت مدرب تزلج، حين كتبت في مجلات عن العمارة الداخلية أو، فيما بعد، عن الطب، أو حين عملت كرسام في معمل نجارة...

- ... نعم هذا أكثر ما أحببته، ولكن ذلك لم يسر كما يرام...

- ... أو حين كنت عاطلاً عن العمل، دون أن تفعل شيئاً بالمرة، ينبغي أن تكون قد مللت أنت أيضاً!

ـ كل شيء تغير منذ عرفتك. ليس الأمر أن أعمالي الصغيرة أصبحت أكثر تشويقاً، بل لأني أحول كل مايجري حواليَّ إلى مادة لمحادثاتنا.

ـ يمكن أن نتحدث عن شيء آخر!

ـ كائنان يتبادلان الحب، وحدهما، منعزلين عن العالم، شيء جميل جداً. ولكن بماذا يغذيّان جلساتهما المنفردة؟ مهما كان العالم جديراً بالازدراء، فإنهما يحتاجان إليه ليستطيعا الكلام فيما بينهما.

ـ يمكنهما أن يسكتا.

ـ مثل هذين الاثنين على الطاولة المجاورة؟.

ضحك جان مارك وقال: أوه! كلا! ما من حب يصمد للبكم».

27

انحنى النادل فوق طاولتهما بالحلوى. انتقل جان مارك إلى موضوع آخر: «أتعرفين هذا المتسول الذي يُرى، من حين إلى آخر، في شارعنا؟

ـ لا.

ـ بل أنت تعرفينه، لابد أنك قد لاحظته، هذا الرجل الأربعيني الذي يشبه موظفاً أو مدرساً ثانوياً والذي يمد يده، مطحوناً بالارتباك، ليلتمس بضع فرنكات. ألا تذكرين؟

ـ لا.

ـ بل أنت تعرفينه! إنه يقف دائماً تحت الدلبة الوحيدة التي تُركت في الشارع. بل إنك تستطيعين رؤية أوراقها من النافذة».

ذكرتها الدلبة به فجأة: «آه! نعم! أتذكر!

ـ رغبتُ رغبة شديدة في التحدث إليه، في عقد محادثة، في أن أعلم، بمزيد من الضبط، من هو، ولكنك لاتستطيعين تقدير مدى صعوبة ذلك».

لم تسمع شانتال كلمات جان مارك الأخيرة. رأت المتسول، الرجل تحت الشجرة، رجل متوارٍ يبرز تحفظه للعيون. كان دائماً حسن اللباس إلى حد يكاد معه المارة ألا يفهموا أنه يتسول. منذ بضعة شهور، توجه إليها طالباً بتهذيب جم، صَدَقة.

تابع جان مارك: «هذا صعب لأنه سيكون مرتاباً، لن يفهم لماذا أود التحدث إليه. بداعي الفضول؟ يجب أن يخيفه ذلك. بداعي الشفقة؟ في هذا إذلال. باقتراحي عليه شيئاً؟ ولكن، ما الذي يجب أن أعرضه عليه؟ حاولت أن أضع نفسي مكانه لأفهم مايمكن أن يتوقعه من الآخرين فلم أجد شيئاً».

تخيلته تحت شجرة، وهذه الشجرة هي التي أفْهَمتها، فجأة، في ومضة برق، أنه هو كاتب الرسائل. إن مجازه حول الشجرة هو الذي خانه، هو الرجل تحت الشجرة، الممتلئ بصورة شجرته. وتوالت أفكارها بسرعة: لاأحد سواه، الرجل الذي لاعمل له والذي يملك كل وقته، يستطيع أن يضع سراً رسالة في علبتها، لاأحد سواه، المحتجب وراء عدميته، يستطيع أن يتبعها في حياتها اليومية دون أن يلمحه أحد.

وكان جان مارك يتابع: «يمكن أن أقول له: تعال ساعدني في ترتيب القبو. سوف يرفض، لاعن كسل، بل لأن ليس لديه ملابس للعمل ويحتاج إلى أن يحافظ على بذلته سليمة. ومع ذلك أود كثيراً التحدث معه، لأنه أناي الأخرى!».

قالت شانتال التي لم تكن تصغي إلى جان مارك: «ماذا يمكن أن تكون عليه حياته الجنسية؟

ضحك جان مارك: حياته الجنسية معدومة، معدومة، أحلام!».

قالت شانتال لنفسها: أحلام. فليست هي، إذن، سوى حلم بائس. لماذا اختارها هي بالضبط؟

وعاد جان مارك إلى فكرته الثابتة: «أود، ذات يوم، أن أقول له: تعال لتناول القهوة معي، أنت أناي الأخرى. أنت تعيش المصير الذي لم أفلت منه إلا مصادفة.

قالت شانتال: لاتقل حماقات. لم تكن مهدداً بمثل هذا المصير.

ـ لاأنسى اللحظة التي تركت فيها الكلية والتي فهمت، خلالها، أن كل القطارات قد رحلت.

قالت شانتال التي سمعت، من قبل، هذه القصة عدة مرات: نعم، أعلم ذلك، أعلم، ولكن، كيف تستطيع أن تشبّه فشلك الصغير بتعاسات رجل ينتظر أن يضع أحد المارة فرنكاً في يده؟

ـ ليس التخلي عن الدراسة فشلاً. ماتخليت عنه آنذاك كان الطموحات. كنت فجأة رجلاً دون طموحات. ولما أضعت طموحاتي وجدت نفسي، فوراً، على هامش العالم. وهناك ماهو أسوأ: لم يكن لدي أية رغبة في أن أجد نفسي في مكان آخر. وقلل من رغبتي أن أي بؤس لم يكن يهددني. لكن إذا لم يكن لديك طموح، إذا لم تكوني نهمة إلى النجاح، إلى أن يُعترف بك، فأنت تقيمين على ضفة السقوط. وقد أقمت هناك، ولو كان ذلك براحة تامة. ولكن هذا لايمنع أني أقمت على ضفة السقوط. فأنا، إذن، دون مبالغة، في جانب هذا المتسول وليس في جانب صاحب هذا المطعم الفخم الذي أستمتع فيه كثيراً».

قالت شانتال لنفسها: أصبحتُ المعبودة الشبقية لشحاذ. هوذا شرف هازل تماماً. ثم صححت نفسها: ولماذا تكون رغبات شحاذ أقل احتراماً من رغبات رجل أعمال؟ إن لرغباته، كونها بلا أمل،

صفة لاتقدر بثمن: إنها حرة وصادقة.

ثم خطرت لها فكرة أخرى: يوم مارست الحب، بقميص النوم الأحمر، مع جان مارك، لم يكن الطرف الثالث الذي راقبهما، الذي كان معهما فتى الحانة، بل هذا الشحاذ؟ وبالفعل، فإنه هو الذي ألقى بالمعطف الأحمر على كتفيها، هو الذي جعل منها كاردينالة فاجرة. بدت لها هذه الفكرة، لبضع لحظات، شاقة، مربكة، ولكن حس الفكاهة لديها تغلب بسرعة، وضحكت في قرارتها بصمت. تخيلت هذا الرجل الخجول إلى آخر حد، بربطة عنقه المثيرة للتأثر، ملتصقاً بجدار غرفتهما، ممدود اليد، ينظر إليهما، بثبات وفجور، وهما يستمتعان أمامه. تخيلت أنها نهضت من على السرير بعد أن انتهى مشهد الحب، وأخذت حقيبتها من فوق الطاولة وبحثت فيها عن نقود صغيرة وضعتها في يده. وبصعوبة توصلت إلى كتم ضحكتها.

28

كان جان مارك ينظر إلى شانتال التي أشرق وجهها فجأة بمرح سري، لم يكن يرغب في أن يسألها عن السبب مكتفياً بتذوق متعة النظر إليها. وفي حين كانت تضيع في صورها الغريبة، كان يقول لنفسه إن شانتال هي صلته العاطفية الوحيدة بالعالم. إذا حدثوه عن سجناء، عن مضطهدين، عن جياع، فإنه يعرف الطريقة الوحيدة ليحس بنفسه يُمس شخصياً، بصورة مؤلمة، بمصيبتهم: إنه يتخيل شانتال مكانهم. وإذا حدثوه عن نساء مغتصَبات خلال حرب أهلية، فإنه يرى، فيهن، شانتال مغتَصبة. إنها هي، ولاشخص سواها، التي تحرره من لامبالاته. وهو غير قادر على التعاطف إلا من خلالها.

كان يود أن يقول لها ذلك، ولكنه خجل من المفجع لاسيما وأن فكرة أخرى، معاكسة تماماً، فاجأته: وماذا لو فقد هذا الكائن الوحيد الذي يربطه بالبشر؟ لم يكن يفكر في موتها، بل بشيء أدق يستحيل فهمه، كان التفكير، فيه، يطارده في هذه الأوقات الأخيرة: ذات يوم لن يتعرف عليها. ذات يوم سيتبين أن شانتال لم تكن شانتال التي عاش معها، بل تلك المرأة التي ظنها هي على الشاطئ. ذات يوم ستبدو له الطمأنينة التي كانت شانتال تمثلها له وهمية وسوف يصير إلى اللامبالاة بها لامبالاته بكل الآخرين.

أمسكت بيده: «ماذا بك؟ أنت حزين من جديد. أتبين منذ أيام أنك حزين، ماذا بك؟.

ـ لاشيء، لاشيء بالمرة!

ـ بلى. قل لي، ما الذي يحزنك في هذه اللحظة؟

ـ تخيلت أنكِ شخص آخر.

ـ كيف؟

ـ أنك غير من أتخيلك، أني أخطأت في هويتك.

ـ لاأفهم».

كان يرى كومة من حمالات الصدر، تلة حزينة من حمالات الصدر، تلة مضحكة. ولكن الوجه الحقيقي لشانتال الجالسة تجاهه سرعان ماعاد إلى الظهور من خلال هذه الرؤية. كان يشعر بملامسة يدها وأمّحى، بسرعة، الانطباع بأن أمامه غريباً أو خائناً. كان يبتسم: «انسي هذا! لم أقل شيئاً».

29

ملتصق الظهر بجدار غرفتهما التي كانا يمارسان فيها الحب،

مبسوط اليد وعيناه شاخصتان، بشراهة، إلى جسديهما العاريين: هكذا تخيلته خلال العشاء في المطعم. إنه الآن ملتصق الظهر بالشجرة ويده ممدودة، بشكل أخرق، نحو المشاة. أرادت في البدء أن تتظاهر بأنها لم تلمحه، ثم توقفت أمامه، عن وعي، طوعاً، بفكرة مبهمة حول الحسم في موقف مشوش. ردد، دون أن يرفع عينيه، صيغته: «أرجو أن تساعدوني».

نظرتْ إليه: كان موسوس النظافة، في عنقه ربطة، وشعره الذي اختلط فيه الشيب بالسواد ممشط إلى الخلف. أهو جميل؟ أهو قبيح؟ إن شرطه يتجاوز به الجميل والقبيح. رغبت في أن تقول له شيئاً، ولكنها لم تعرف ماذا تقول، ولما منعها ارتباكها من الكلام، فتحت حقيبتها وبحثت عن كيس نقودها الصغير، ولكنها لم تجد فيه شيئاً خلاف بضعة سنتيمات. كان مزروعاً أمامها، جامداً ويده ممدودة نحوها، وكان جموده يضاعف وزن الصمت. بدا لها قولها له، الآن، اعذرني فلا أحمل نقوداً أمراً مستحيلاً، فأرادت بالتالي، أن تعطيه ورقة مالية، ولكنها لم تجد سوى قطع بمئتي فرنك، وهذه صدقة فوق الحد وجعلتها تحمرّ: تكوّن لديها الشعور بأنها تعيل عاشقاً خيالياً وتبالغ في الدفع له من أجل أن يبعث إليها برسائل حب. وعندما أحس المتسول، في يده بورقة بدلاً من قطعة صغيرة من المعدن، رفع رأسه ورأت عينيه مدهوشتين كلياً. كانت نظرةً جفول، وابتعدت متضايقة بسرعة.

عندما وضعت الورقة في يده، كانت ماتزال تفكر أنها تعطيها للمعجب بها. ولم تصبح قادرة على زيادة القليل من وضوح الذهن إلا وهي تبتعد: لم يكن هناك أي بريق تواطؤ في عينيه، أي تلميح صامت إلى مغامرة مشتركة، لاشيء سوى دهشة صادقة وكلية، الدهشة الخائفة لفقير. وفجأة اتضح كل شيء: اعتبار هذا الرجل صاحب الرسائل هو ذروة العبث.

صعد إلى رأسها غضب ضد نفسها. لماذا تكرس هذا المقدار من الانتباه لهذه التفاهة؟ لماذا تعرض نفسها، حتى في الخيال، لهذه المغامرة التي دبرها عاطل عن العمل ملول؟ بدت لها فكرة رزمة الرسائل المخبأة تحت حمالات صدرها لاتُحتمل فجأة. تصورت مراقباً يتفحص، من مكان سري، كل ماتفعله، ولكن دون معرفة ماتفكر فيه لن يستطيع، حسب مايرى، إلا أن يعدّها امرأة ظمأى ظمأً تافهاً إلى الرجال بل، وأسوأ من ذلك، امرأة رومنطيقية وغبية تحتفظ بكل وثيقة حب تحلم به وكأنها شيء مقدس.

لم تعد تستطيع أن تتحمل هذه النظرة الساخرة من المراقب غير المرئي، فمضت، منذ وصولها إلى البيت، نحو الخزانة. رأت كومة حمالات صدرها وشيئاً صدم عينيها. ولكنها لاحظته، بالتأكيد، منذ الأمس: لم يكن شالها مطوياً كما تطويه هي نفسها. حالتها المغتبطة سرعان ما أنستها ذلك. ولكنها لاتستطيع، هذه المرة، أن تدع هذا الأثر ليد غير يدها يمر. آه! الأمر أوضح مما ينبغي! لقد قرأ الرسائل! إنه يراقبها! يتجسس عليها!.

امتلأت غضباً انصب على أهداف متعددة: على الرجل المجهول الذي يضايقها برسائل، دون أن يطلب العفو. على نفسها التي تحتفظ بها، بغباء، مخبأة، وعلى جان مارك الذي يتجسس عليها. سحبت رزمة الرسائل ومضت (كم مرة فعلت ذلك من قبل!) إلى المرحاض. وهناك نظرت إليها مرة أخيرة قبل أن تمزقها وتتركها تمضي مع الماء. وجدت، وقد أصبحت مرتابة، كتابتها مشبوهة. فحصتها بانتباه: الحبر نفسه كل مرة، العلامات كبيرة جداً ومائلة قليلاً إلى اليسار، ولكنها تختلف من حرف إلى آخر كما لو أن الذي كتبها لم ينجح في الاحتفاظ بالكتابة نفسها. بدت لها هذه الملاحظة من الغرابة بحيث أنها، هذه المرة أيضاً، لم تمزق الرسائل وجلست إلى الطاولة لتعيد قراءتها. توقفت عند الثانية التي تصفها عندما ذهبت إلى المصبغة: كيف جرى ذلك

آنذاك؟ كانت مع جان مارك. إنه هو الذي كان يحمل الحقيبة. وفي الداخل، هي تذكر ذلك جيداً، كان جان مارك هو، أيضاً، الذي أضحك صاحبة المصبغة. مراسلها يذكر هذه الضحكة. ولكن كيف استطاع سماعها؟ إنه يؤكد أنه نظر إليها من الشارع. ولكن، من الذي كان يمكن له أن يراقبها دون أن تنتبه إلى ذلك؟ ليس أي دوبارو، ليس أي شحاذ. هناك شخص واحد: الذي كان معها في المصبغة. والصيغة القائلة: «شيء مضاف، صنعياً، إلى حياتك» التي كانت تعتبرها هجوماً أخرق ضد جان مارك، كانت غنجاً نرجسياً من جان مارك نفسه. نعم، لقد فضح نفسه بنرجسيته، بنرجسية شكاءة تريد أن تقول لها: منذ أن يوجد على دربك رجل آخر لاأعود أنا سوى شيء غير نافع، مضاف إلى حياتك. ثم تذكرت تلك الجملة الطريفة في نهاية عشائهما في المطعم. قال لها بأنه ربما أخطأ حول هويتها، فهي ربما كانت شخصاً آخر! كتب إليها، في رسالته الأولى: «أتبعك مثل جاسوس». فهو إذن هذا الجاسوس. إنه يفحصها، يُجري تجارب معها ليثبت لنفسه أنها ليست تلك التي يظنها! كتب إليها رسائل تحت اسم مجهول وراقب، بعد ذلك، سلوكها، تجسس حتى على خزانتها، حتى على حمالات صدرها!

ولكن، لماذا فعل ذلك؟

كانت إجابة واحدة تفرض نفسها: يريد أن ينصب لها فخاً. ولكن، لماذا ينصب لها فخاً؟

ليتخلص منها. في الواقع هو الأصغر، وهي قد كبرت. عبثاً أخفت هبات الحرارة لديها، فقد كبرت، وهذا أمر يُرى. إنه يبحث عن سبب ليهجرها. لن يستطيع أن يقول لها: لقد كبرتِ وأنا شاب. إنه أكثر تهذيباً، أكثر لطفاً من ذلك. ولكنه، منذ تأكدّه من خيانتها، من كونها قادرة على خيانته، سوف يهجرها بالسهولة نفسها،

بالبرود نفسه اللذين أبعد، بهما، من حياته صديقه القديم جداً ف. هذا البرود، وهو على هذا القدر من الفرح، أخافها دائماً. وهي تفهم، الآن، أن هذا الخوف كان نذيراً.

30

كان قد سجل احمرار شانتال في البداية الأولى لكتاب حبهما الذهبي. لقد التقيا لأول مرة وسط أشخاص عديدين، في صالة حول مائدة طويلة حافلة بأكواب الشمبانيا وأطباق الخبز المحمص واللحوم والجامبون. كان فندقاً في الجبل، وكان، إذ ذاك، مدرب التزلج ودعي، بنزوة مصادفة، ولسهرة واحدة، لينضم إلى أعضاء حلقة دراسية، كانت تنتهي كل مساء بكوكتيل صغير. قدموه لها بصورة عابرة، بسرعة، دون أن يستطيع أحدهما حفظ اسم الآخر. لم يتوصلا إلى أن يتبادلا إلا بضع كلمات في حضور الآخرين. وجاء جان مارك، دون دعوة، في اليوم التالي، ليراها فقط. احمرّت عندما لمحته. لم يحمرّ خداها فقط، بل احمرّت في موقع أدنى أيضاً، في كل نحرها العاري، كانت رائعة الاحمرار في عيون الجميع، احمرار بسببه ومن أجله. هذا الاحمرار كان تصريحها عن الحب، هذا الاحمرار قرر كل شيء. وبعد حوالى ثلاثين دقيقة، نجحا في أن يوجدا، وحدهما، في عتمة رواق طويل. ودون أن يتلفظا بكلمة واحدة تبادلا القبل.

وكونه لم ير، فيما بعد، خلال سنوات، هذا الاحمرار أكد له الطابع الاستثنائي لاحمرار ذلك الحين الذي كان يسطع في ماضيهما البعيد كياقوتة لاتقدّر بثمن. ثم قالت له، ذات يوم، إن الرجال لم يعودوا يديرون وجوههم نحوها. الكلمات غير ذات المعنى، في حد ذاتها، أصبحت هامة بسبب الاحمرار الذي صاحبها. لم يستطع أن يبقى أصم أمام لغة الألوان التي كانت لغة

حبهما والتي بدت له، في ارتباطهما مع الجملة التي تلفظت بها، تتحدث عن لوعة التقدم في العمر. ولذلك كتب لها، تحت قناع إنسان غريب: «أتبعك مثل جاسوس، أنت جميلة، جميلة جداً».

عندما وضع الرسالة الأولى في العلبة، لم يكن يفكر في إرسال أخرى. لم تكن لديه أية خطة، ولم يكن يستهدف أي مستقبل، كان يريد، بكل بساطة، أن يسعدها، الآن، فوراً، أن يحررها من هذا الانطباع المحبط بأن الرجال لم يعودوا يديرون وجوههم نحوها. لم يحاول التنبؤ بردود فعلها. ولو كان مرغماً، على الرغم من كل شيء على تخمينها، فقد كان من شأنه أن يفترض أنها ستريه الرسالة قائلة: «انظر! على الرغم من كل شيء، فإن الرجال لم ينسوني!»، وكان سيضيف، بكل براءة عاشق، إلى مديح المجهول ثناءاته الخاصة. ولكنها لم تُره شيئاً. بقيت الحادثة مفتوحة دون نقطة نهاية. وفي الأيام التالية فاجأها يائسة، فريسة لفكرة الموت بحيث استمر شاء ذلك أم أبى.

كان يقول لنفسه وهو يكتب الرسالة الثانية: أنا أصبح سيرانو(*)، سيرانو: الرجل الذي يصرّح، تحت قناع رجل آخر، بحبه للمرأة المعشوقة، الذي رأى، وقد تخفف من اسمه، بلاغته المتحررة فجأة تتحرر. وهكذا أضاف، في أسفل الرسالة التوقيع: C.D.B. كان ذلك شيفرة له وحده، كما لو كان يريد أن يترك علامة سرية على مروره، C.D.B: سيرانو دوبرجراك.

استمر في أن يكون سيرانو. وبما أنها ارتابت في أنه كف عن الإيمان بمفاتنها، فقد ذكر لها جسدها. كان يحاول أن يشير إلى كل جزء منه: الوجه، الأنف، العينين، العنق، الساقين، من أجل أن تعود فخورة بهذا الجسد. أسعده أن يراها تلبس بمزيد من المتعة،

(*) سيرانو دوبرجراك بطل مسرحية شهيرة بهذا الاسم لأدمون روستان. وسيرانو الذي كان قبيحاً، طويل الأنف كان يناجي حبيبته، تحت شرفتها، متوارياً تاركاً الظهور لفتى آخر يحب المرأة نفسها.

أكثر مرحاً، ولكن نجاحه كان، في الوقت نفسه، يغيظه: لم تكن في السابق تحب أن تعلق حول عنقها اللآلئ الحمراء حتى حين كان يطلب إليها ذلك، ومن أطاعته هو شخص آخر.

لايمكن لسيرانو أن يعيش دون غيرة. في اليوم الذي دخل فيه بشكل غير متوقع، الغرفة التي كانت فيها شانتال منحنية فوق رف في الخزانة، لاحظ جيداً ارتباكها. حدثها عن الجفن الذي يغسل متظاهراً بأنه لم ير شيئاً. ولم يفتح الخزانة إلا في اليوم التالي، حين كان في المنزل وحده، ورأى رسالتيه تحت كومة حمالات الصدر.

عند ذلك تساءل مرة أخرى، مفكراً، لماذا لم تطلعه عليهما؟ بدا له الجواب سهلاً. فإذا كتب رجل رسائل إلى امرأة، فذلك ليهيء الطريق التي سيقارب فيها، فيما بعد، هذه المرأة ليغويها. وإذا توقفت المرأة عند هذه الرسائل، فذلك لأنها تريد من كتمانها، اليوم، أن تحمي مغامرة الغد. وإذا احتفظت بها، علاوة على ذلك، فذلك لأنها مستعدة لفهم هذه المغامرة المقبلة كحب.

ظل طويلاً أمام الخزانة المفتوحة، ثم كان، بعد ذلك، كلما أودع رسالة في العلبة، يمضي ليتحقق مما إذا كان سوف يجدها في مكانها، تحت حمالات الصدر.

31

لوعرفت شانتال أن جان مارك كان غير مخلص لها، فإنها ستعاني من ذلك، ولكن هذا سوف يتفق مع ماكانت، في أقصى الأحوال، تتوقعه منه. أما هذا التجسس. هذا التجريب البوليسي الذي يُخضعها له، فإنهما لايقابلان في شيء ماكانت تعرفه عنه. عندما تعارفا لم يكن يريد أن يعرف ويسمع شيئاً عن حياتها

الماضية. وافقت بسرعة على جذرية الرفض هذه. لم تحجب قط أي سرّ عنه، ولم تكن تسكت إلا عما لم يكن، هو نفسه، يريد سماعه. فهي لاترى أي سبب يحمله، فجأة، على الارتياب بها ومراقبتها.

وبغتة تذكرت الجملة حول لباس الكاردينال القرمزي التي أدارت رأسها، وشعرت بالخجل: كم كانت متلقية للصور التي كان أحدهم يغرسها في رأسها! لابد أنها بدت مضحكة له! لقد وضعها في قفص، كأرنب، وأخذ يراقبها بصورة شريرة وسعيدة.

وماذا لو كانت مخطئة؟ ألم تخطئ من قبل مرتين حين ظنت أنها اكتشفت مراسلها؟

أحضرت بضع رسائل كان جان مارك قد كتبها لها في الماضي وقارنتها برسائل C.D.B. لجان مارك كتابة تميل ميلاً خفيفاً إلى اليمين مع علامات أقرب إلى الصغر، في حين أن الكتابة كانت، في كل رسائل المجهول، ضخمة وتميل إلى اليسار. ولكن هذه التباين الفائق الظهور هو، على وجه الدقة، الذي يفضح الخدعة. من أراد أن يخفي خطه الخاص سوف يفكر، أولاً، في تغيير ميله وحجمه. حاولت شانتال أن تقارن بين حروف «f»، و«a»، و«o» كما هي عند جان مارك وعند المجهول. تبين لها، على الرغم من حجميهما المختلفين، أن الرسم أقرب إلى التشابه. ولكنها فقدت تأكدها عندما استمرت، أيضاً وأيضاً، في المقارنة. أوه، كلا، ليست خبيرة خطوط ولاتستطيع أن تتأكد من شيء.

اختارت رسالة لجان مارك وأخرى موقعة من C.D.B ووضعتهما في حقيبتها. ماذا تفعل بالأخرى؟ هل تجد لها مخبأ أفضل؟ ما الفائدة؟ جان مارك يعرفها، بل يعرف المكان الذي تضعها فيه. يجب ألاّ تُفهمه أنها تحس بنفسها مراقبة. وهكذا تركتها في الخزانة، حيث كانت دائماً، على وجه الضبط.

ثم قرعت جرس مكتب خبير خطوط. استقبلها شاب بلباس غامق وقادها، عبر رواق، إلى مكتب كان فيه رجل قوي البنيان، بقميص قصير الكمين، جالساً وراء طاولة. وفي حين بقي الشاب مستنداً إلى الجدار في آخر الغرفة، نهض القوي ومد لها يده.

ثم جلس الرجل وأخذت مكانها في مقعد تجاهه. وضعت رسالة جان مارك ورسالة C.D.B على الطاولة. وشرحت له، إذا ذاك بارتباك ماكانت تريد معرفته. قال لها الرجل بلهجة متباعدة جداً: «أستطيع أن أُجري لك تحليلاً نفسياً للرجل الذي تعرفين هويته. ولكن من الصعب إجراء التحليل النفسي لكتابة مزيفة.

ـ لست في حاجة إلى تحليل نفسي. فسيكولوجية الرجل الذي كتب هذه الرسائل، إذا كان هو الذي كتبها، أعرفها جيداً.

ـ ماتريدينه، إذا فهمتك جيداً، هو أن تتأكدي من أن الذي كتب هذه الرسالة ـ عشيقك أو زوجك ـ هو نفسه الذي غيّر خطه هنا. تريدين أن تفحميه.

قالت مرتبكة: ليس هذا دقيقاً تماماً.

ـ ليس تماماً، ولكن تقريباً. إلا إني ياسيدتي، عالم خط وسيكولوجي، ولست مخبراً خاصاً، ولا أتعاون كذلك مع الشرطة».

هبط الصمت على الحجرة الصغيرة، ولم يكن واحد من الرجلين يريد أن يقطعه لأن أياً منهما لم يكن متعاطفاً معها.

أحست، داخل جسدها، بموجة حرارة قوية، وحشية، ظاهرة، واحمرّت، احمرّ كل جسدها. ومرة أخرى، عبرتها الكلمات حول معطف الكاردينال القرمزي لأن جسدها كان، الآن، متدثراً بمعطف باذخ مصنوع من لهب.

قال أيضاً: «لقد أخطأتِ العنوان، فلستِ هنا في مكتب وشاية».

سمعت كلمة «وشاية» وتحول معطف اللهب إلى معطف خجل.

نهضت لتسترد رسالتيها. ولكن الفتى الذي كان قد استقبلها على الباب انتقل إلى الجهة الثانية من الطاولة قبل أن تستطيع أخذهما. وقف إلى جانب الرجل القوي البنية ونظر بإمعان إلى الكتابتين وقال: «من المؤكد أنه الشخص نفسه»، ثم توجه إليها قائلاً: «انظري إلى حرف «t»، هذا، انظري إلى حرف «g»!»

فجأة تعرفت عليه: هذا الفتى كان نادل مقهى المدينة النورماندية حيث كانت تنتظر جان مارك. وبما أنها عرفته سمعت داخل جسمها المشتعل بكامله، ناراً، صوتها الخاص يرعد: ولكن كل هذا غير صحيح! أنا أهذي، أهذي، لايمكن لذلك أن يكون صحيحاً.

رفع الفتى رأسه ونظر إليها (كما لو كان يريد أن يريها وجهه لتتعرف عليه جيداً) وقال لها بابتسامة عذبة بقدر ماهي مزدرية: «بالتأكيد! إنها الكتابة نفسها. لقد ضخمها وأمالها إلى اليسار فقط».

لم تعد تريد أن تسمع شيئاً، فكلمة «وشاية» طردت كل الكلمات الأخرى. أحست كأنها امرأة تشكو حبيبها إلى الشرطة مقدمة، كدليل، شعرة وجِدت على غطاء سرير الخيانة. وأخيراً استدارت بعد أن استعادت رسالتيها، دون أن تقول كلمة، لتمضي. ومرة أخرى، بدّل الفتى مكانه: كان قرب الباب وفتحه لها. إنه على مسافة ست خطوات منها، وهذه المسافة الصغيرة بدت لها لامتناهية. كانت حمراء، تحترق، تتصبب عرقاً. وكان الفتى الواقف أمامها وقح الشباب وينظر إلى جسدها المسكين بوقاحة، جسدها المسكين! أحست تحت نظرة الفتى، أنها تشيخ في لمحة بصر، بتسارع وفي وضح النهار.

بدا لها أن الموقف الذي عاشته في المقهى على شاطئ البحر

النورماندي يتكرر، عندما سد عليها، بابتسامته المتملقة، الطريق نحو الباب، وعندما خافت من ألا تستطيع الخروج. انتظرت أن يلعب معها اللعبة نفسها، ولكنه بقي واقفاً، بأدب، إلى جانب باب المكتب وتركها تمر. ثم عبرت، بخطوة امرأة مسنة مترددة، الرواق في اتجاه باب المدخل (كانت تشعر بنظرته تثقل ظهرها المبلل) وعندما وجدت نفسها أخيراً على الدرج، أحست بأنها نَجَت من خطر كبير.

32

في اليوم الذي سارا فيه معاً على الطريق دون أن يقولا شيئاً، ودون أن يريا حولهما سوى مارة مجهولين، لماذا احمرّت فجأة؟ كان ذلك غير قابل للتفسير: لم يستطع، إذ ذاك، وهو الحائر، أن يسيطر على ردة فعله: «لقد احمررتِ! لماذا احمررتِ؟». لم تجبه، واضطرب لرؤية شيء مايجري في داخلها ولايعرف عنه شيئاً.

وكما لو كانت هذه الحادثة قد أعادت إشعال اللون الملكي لكتاب حبه الذهبي، فقد كتب إليها الرسالة حول معطف الكاردينال القرمزي. وقد توصل، إذ ذاك، في دوره كسيرانو، إلى أكبر إنجاز له: لقد أغواها. كان فخوراً برسالته، فخوراً بإغرائها، ولكنه أحس بغيرة أقوى من أي وقت مضى. لقد خلق شبح رجل وأخضع، على هذا النحو، شانتال، دون أن يريد، لاختبار كان يقيس حساسيتها لإغواء شخص آخر.

لم تكن غيرته تشبه تلك التي عرفها في شبابه، عندما كان الخيال يشعل خيالاً شبقياً معذباً. هذه المرة كانت أقل إيلاماً، ولكنها أشد تخريباً: كانت، بهدوء، تحوّل امرأة محبوبة إلى ظل امرأة محبوبة. وبما أنها لم تعد كائناً موثوقاً فيه بالنسبة إليه، فلم

تعد هناك أية نقطة مستقرة في الفوضى بلا قيم، فوضى العالم. واستولت عليه، حيال شانتال المتبدلة الجوهر (أو فاقدة الجوهر)، لامبالاة كئيبة غريبة، لم تكن اللامبالاة بها، بل اللامبالاة حيال كل شيء. فإذا كانت شانتال ظلاً، فكل حياة جان مارك ظل بدورها.

وفي النهاية انتصر حبه على غيرته وشكوكه. كان ينحني أمام الخزانة المفتوحة، مثبت العينين على حمالات الصدر، وفجأة، ودون أن يفهم كيف حدث ذلك، أحس بالتأثر. كان متأثراً أمام مبادرة النساء هذه التي تعود إلى عصور سحيقة والتي هي إخفاء رسالة تحت ثيابهن الداخلية، أمام هذه المبادرة التي تأخذ شانتال الفريدة والتي لاتقلد، عن طريقها، مكانها في الموكب اللامتناهي لبنات جنسها. لم يرد أن يعرف شيئاً عن حياتها الحميمة التي لم يشاطرها إياها. فلماذا يجب أن يهتم بها الآن، بل وأن يغتاظ منها؟

وتساءل، ماذا يعني، فضلاً عن ذلك، سر حميم؟ هل هو المكان الذي يقع فيه أكثر مافي كائن حر من فردية، وأصالة ولغزية؟ هل أسرار شانتال الحميمة هي التي تجعل منها هذا الكائن الفريد الذي يحبه؟ كلا. السر هو مايكون الأكثر شيوعاً وعادية وتكرراً وانتشاراً بين الجميع: الجسم وحاجاته وأمراضه وعاداته، الإمساك أو الدورة الشهرية مثلاً. وإذا كنا نخفي هذه الأمور الحميمية بحياء، فليس ذلك لأنها شخصية إلى هذا الحد، بل، على العكس من ذلك، لأنها لاشخصية إلى حد يدعو للرثاء. كيف يمكن أن يأخذ على شانتال أن تشبه كل النساء، أن ترتدي حمالة صدر، وسيكولوجية حمالة الصدر معها؟ وذلك كما لو كان لاينتمي، هو نفسه، إلى غباوة ما أزلية الذكورة! إن كليهما يستمدان أصلهما من ورشة الهواة هذه التي أفسدت عيونهما بحركة جفن مفككة الأوصال وأقامت في بطنيهما، معملاً صغيراً نتناً. إن لكل منهما

جسداً مكانُ النفس فيه بالغ الصغر. أما ينبغي لهما أن يتبادلا الصفح؟ أما ينبغي عليهما تجاوز مسكناتهما الصغيرة التي يخفيانها في قعر دروجهما. استولى عليه تعاطف عظيم وقرر لإنهاء هذه القصة أن يكتب إليها رسالة أخيرة.

33

فكر، من جديد، وهو منحنٍ فوق ورقة، بما سماه سيرانو الذي كانه (الذي مايزال عليه لآخر مرة) شجرة الاحتمالات: الحياة كما تظهر للإنسان الذي وصل، مدهوشاً، إلى عتبة حياته الراشدة: أغصان وفيرة مليئة بنحلات تغنّي. وظن أنه يفهم لماذا لم تطلعه على الرسائل قط: كانت تريد سماع تمتمة الشجرة وحدها دونه، لأنه، هو جان مارك كان يمثل إلغاء كل الاحتمالات. كان اختزال حياتها (حتى ولو كان اختزالاً سعيداً) إلى إمكانية واحدة. لم تكن تستطيع التحدث معه عن هذه الرسائل إذ كان من شأنها، بهذا الصدق، أن تعرِّف فوراً (لنفسها وله) بأنها لم تكن مهتمة حقاً، بالإمكانيات التي كانت الرسائل تعدها بها، بأنها كانت تتخلى، سلفاً، عن الشجرة المجهولة التي كان يريها إياها. كيف يمكن أن يلومها على ذلك؟ إنه هو، في نهاية المطاف، الذي أراد إسماعها موسيقى أغصان متمتمة. فهي تصرفت إذن حسب رغبات جان مارك. لقد أطاعته.

قال لنفسه، منحنياً فوق ورقته: يجب أن يبقى صدى هذه التمتمة في شانتال حتى ولو انتهت مغامرة الرسائل. كتب إليها أن ضرورة غير متوقعة تجبره على الرحيل. ثم لوّن تأكيده: «أهو حقاً رحيل غير متوقع، أم أني بالأحرى لم أكتب رسائلي إلا لأنها ستبقى، على وجه الدقة، دون تتمة؟ أليس وثوقي من رحيلي هو ماسمح لي بأن أكلمك بصراحة كلية؟».

الرحيل! نعم، إنه الحل الوحيد الممكن. ولكن أين؟ أخذ يفكر. هل يمتنع عن ذكر الوجهة؟ إن ذلك سيكون رومنطيقي الغموض أكثر مما ينبغي بقليل، أو هرباً غير مهذب. صحيح أن وجوده يجب أن يبقى في الظل، ولذلك لايستطيع أن يبدي أسباب رحيله لأن هذه قد تدل على هوية المراسل الخيالية، على مهنته مثلاً. ومع ذلك سيكون أقرب إلى الطبيعي أن يقول أين هو ذاهب. إلى مدينة في فرنسا؟ كلا! هذا لن يكون سبباً كافياً للانقطاع عن المراسلة. يجب الرحيل بعيداً. إلى نيويورك؟ المكسيك؟ اليابان؟ سيكون ذلك مشبوهاً قليلاً. يجب تصور مدينة أجنبية، ومع ذلك قريبة، عادية. لندن! نعم! بدا له هذا منطقياً وطبيعياً إلى حد قال، معه، لنفسه: لاأستطيع، فعلاً، أن أذهب إلا إلى لندن: لماذا تبدو له لندن طبيعية إلى هذا الحد؟ طغت، إذ ذاك، ذكرى رجل لندن الذي غالباً ما تمازح هو وشانتال حوله، رجل النساء الذي أعطى، في الماضي، بطاقته لشانتال، الانكليزي، البريطاني الذي لقبه جان مارك ببريتانيكوس. ليس هذا سيئاً: لندن مدينة الأحلام الداعرة. هناك سيذهب العابد المجهول ليذوب في جمهور المحتفلين، الساعين وراء النساء، القناصين، المهووسين جنسياً، الفاسدين، الفجّار هناك سيختفي إلى الأبد.

وفكر أيضاً: سيترك كلمة لندن في رسالته كتوقيع، كأثر يكاد لايُدْرك لمحادثاته مع شانتال. وفي صمت، سخر من نفسه: يجب أن يبقى مجهولاً، لايمكن تحديد هويته، لأن اللعبة تقتضي هذا، ومع ذلك، فإن رغبة معاكسة، رغبة غير مبررة أبداً، غير قابلة للتبرير، لاعقلانية، سرية، بلهاء بالتأكيد، حثته على ألا يبقى متوارياً تماماً، على ترك أثر، على أن يخبئ، في مكان ما، توقيعاً مشفراً يستطيع ملاحظ مجهول وعلى درجة استثنائية من وضوح الذهن أن يعرف هويته.

سمع، وهو يهبط الدرج ليضع الرسالة في العلبة، صرخات

أصوات حادة. وعندما وصل إلى أسفل، رآهم: امرأة مع ثلاثة أطفال أمام أجراس البناية. مر إلى جانبهم وهو متجه نحو العلب المصفوفة على الجدار المقابل. وعندما التفت، رأى المرأة تضغط على الجرس الذي سُجل عليه اسمه واسم شانتال.

سألها قائلاً: «هل تبحثين عن أحد؟».

ذكرت له المرأة اسماً.

«هذا أنا».

تراجعت خطوة إلى الوراء ونظرت إليه بإعجاب متباه: «أهذا أنت؟ أوه، كم يسعدني أن أتعرف عليك! أنا شقيقة زوج شانتال!».

34

لم يكن، وقد احتار، يستطيع إلا أن يدعوهم إلى الصعود. قالت شقيقة الزوج عندما دخلوا جميعاً إلى الشقة: «لاأريد أن أزعجك.

- أنت لاتزعجينني، وفضلاً عن ذلك، فلن تتأخر شانتال».

أخذت شقيقة الزوج تتكلم. كانت، بين حين وآخر، تنظر إلى الأطفال الذي كانوا، جميعهم، هادئين، خجولين، بل ذاهلين.

قالت وهي تداعب رأس أحدهم: «يسعدني أن تراهم شانتال. إنها لاتعرفهم، فقد ولدوا بعد رحيلها. كانت تحب الأطفال، ودارتنا كانت تفيض بهم. كان زوجها أقرب إلى أن يكون كريهاً، لاينبغي أن أتحدث هكذا عن أخي. ولكنه تزوج ثانية ولم يعد يرانا». وقالت ضاحكة: «الواقع إني فضلت شانتال دائماً على زوجها!».

تراجعت من جديد خطوة إلى الوراء وواجهت جان مارك بنظرة معجبة بقدر ماهي مستفزة: عرِفتْ أخيراً كيف تختار رجلاً!

جئت لأقول لك: أهلاً بك بيننا. سأكون ممتنة لو أتيت ورددت لنا، على هذا النحو، شانتالنا. البيت مفتوح أمامك عندما تريد، دائماً.

ـ شكراً.

ـ أنت طويل، آه كم أحب هذا. أخي أقصر من شانتال. كان لدي دائماً الانطباع بأنها كانت أمه. كانت تسميه «فأرتي الصغيرة»، أترى ذلك؟ أعطته لقباً أنثوياً! وقالت وهي تنفجر ضحكاً: «كنت أتخيلها، دائماً، تمسك به بين ذراعيه وتهدهده هامسة له فأرتي الصغيرة، فأرتي الصغيرة!».

خطت بضع خطوات راقصة، ممدودة الذراعين كما لو أنها تحمل طفلاً وكررت: «فأرتي الصغيرة، فأرتي الصغيرة!». تابعت رقصها برهة صغيرة مقتضية، بالمقابل، ضحكة من جان مارك. ومن أجل إرضائها، زيّف ابتسامة وتخيل شانتال أمام رجل تدعوه «فأرتي». كانت أخت الزوج تواصل الكلام، ولم يكن يستطيع أن يتخلص من هذه الصورة التي كان شعر رأسه ينتصب لها: صورة شانتال تسمي رجلاً (أقصر منها) «فأرتي الصغيرة».

وصلت ضجة من الغرفة المجاورة. انتبه جان مارك إلى أن الأطفال لم يعودوا معهما. هذه هي استراتيجية الغزاة الماكرة: فقد نجحوا، تحت ستار تفاهتهم، في التسلل إلى غرفة شانتال، كجيش سري في البدء، ثم بعد أن أغلقوا الباب بحذر وراءهم، بعنف غزاة.

أقلق ذلك جان مارك، ولكن أخت الزوج طمأنته: «هذا لاشيء! إنهم أطفال يلعبون.

قال جان مارك: نعم، أرى أنهم يلعبون». واتجه نحو الغرفة الصاخبة. كانت أخت الزوج أسرع. فتحت الباب: كانوا قد حولوا كرسياً دواراً إلى مضمار. ثمة طفل قد استلقى على بطنه فوق

المقعد، وهو يدور والاثنان الآخران يراقبانه صارخين.

كررت أخت الزوج قائلة: «إنهم يلعبون، لقد قلت لك ذلك». ثم قالت بغمزة عين متواطئة: «إنهم أطفال، ماذا تريد؟ من المؤسف ألا تكون شانتال هنا. أود كثيراً أن تراهم».

تحولت ضجة الغرفة المجاورة إلى ضوضاء، ولم تعد لدى جان مارك أية رغبة في تهدئة الأطفال. كان يرى أمامه، شانتال تهدهد، وسط الغوغاء العائلية، بين ذراعيها، رجلاً صغيراً تسميه «فأرتي». وانضمت إلى هذه الصورة أخرى: صورة شانتال التي تحتفظ، بإصرار، برسائل عابد مجهول حتى لاتخنق في البيضة وعداً بمغامرات. هذه الشانتال لاتشبه نفسها، هذه الشانتال ليست تلك التي يحبها، هذه الشانتال ظلٌ. ملأته رغبة هدامة غريبة وفرح بالفوضى التي يصنعها الأطفال. رغب في أن يدمروا الغرفة، في أن يدمروا كل هذا العالم الذي كان يحبه والذي أصبح ظلاً.

كانت أخت الزوج تتابع، في هذه الأثناء، قائلة: «كان أخي أهزل مما ينبغي لها، أنت تفهمني، هزيل...» وضحكت قائلة: «... بكل معاني الكلمة، هل تفهم، هل تفهم؟». وضحكت، أيضاً، وقالت: «وفضلاً عن ذلك، هل أستطيع أن أقدم إليك نصيحة؟

ـ إذا أردت.

ـ نصيحة حميمة جداً».

قربت فمها وروت له شيئاً، ولكن شفتيها اللتين مستا أذن جان مارك صنعت ضجة وجعلت الكلمات غير مسموعة. ابتعدت ضاحكة: «مارأيك؟»

لم يكن قد فهم شيئاً، ولكنه ضحك أيضاً.

قالت أخت الزوج: «آه، لقد سرك ذلك!»، وأضافت قائلة: «أستطيع أن أروي لك أشياء كثيرة من هذا النوع، أوه، أنت تعلم،

لم يكن لإجدانا أسرار تخفيها عن الأخرى. إذا كان لديك مشكلات معها، قل لي، أستطيع أن أعطيك نصائح جيدة». وضحكت قائلة: «أعرف كيف يجب ترويضها!».

وفكر جان مارك: حدثتني شانتال، دائماً، عن أسرة أخت زوجها بعداء. كيف يمكن لأخت زوجها أن تبدي لها محبة بهذه الصراحة؟ ماذا يعني، إذن، بالضبط، أن تكون شانتال قد كرهتهم؟ كيف يمكن للمرء أن يكره وأن يتكيف، في الوقت نفسه بهذه السهولة مع مايكرهه؟

كان الأطفال يعيثون فساداً في الغرفة المجاورة، وابتسمت أخت الزوج مع حركة في اتجاههم: «هذا يزعجك، إني أرى ذلك! أنت مثلي، أتعلم، لست امرأة مرتبة جداً، أحب أن تتحرك الأشياء، أن تدور، أحب الغناء، وباختصار، أحب الحياة!».

وتابع تأملاته فوق خلفية من صرخات أطفال: هل السهولة التي تستطيع أن تتكيف بها مع ماتكرهه حَرِية بالإعجاب، إلى هذا الحد حقاً؟ هل امتلاك وجهين انتصار؟ لقد سرته فكرة كونها بين جماعة الإعلان، مايشبه الدخيل، الجاسوس، العدو المقنّع، الإرهابي الامكاني. ولكنها ليست إرهابية، بل هي، بالأحرى، إذا كان يجب أن يلجأ إلى هذه المصطلحات السياسية، متعاونة، متعاونة تخدم سلطة مكروهة دون أن تتماهى معها، تعمل من أجلها مع بقائها مفصولة عنها وسوف تقدم، ذات يوم، لدفاعها أمام قضاتها، شخصيتها كذات وجهين.

35

توقفت شانتال عند العتبة وبقيت مدهوشة عندها مايقرب من

دقيقة لأن جان مارك وأخت زوجها لم يكونا قد لاحظاها. سمعت صوت النفير الذي لم تسمعه منذ وقت طويل جداً: «أنت مثلي. أتعلم، لست امرأة مرتبة جداً، أحب أن تتحرك الأشياء، أن تدور، أحب الغناء، وباختصار، أحب الحياة!».

وأخيراً، وقعت نظرة أخت الزوج عليها فهتفت: «شانتال، يالها من مفاجأة، أليس كذلك؟» وأسرعت لتقبلها. أحست شانتال، لدى ملتقى شفتيها، برطوبة فم أخت زوجها.

وسرعان ما انقطع الارتباك الذي سببه ظهور شانتال بظهور طفلة. أعلنت أخت الزوج لشانتال: «هذه صغيرتنا كورين»، ثم قالت للطفلة: «قولي نهارك سعيد للخالة»، ولكن الطفلة لم تعر شانتال أي انتباه، وأعلنت أنها كانت تريد أن تتبول. اتجهت أخت الزوج، مع كورين، دون تردد، كما لو أنها تعرف الشقة جيداً من قبل نحو الرواق واختفت في المرحاض.

تمتمت شانتال، مستفيدة من غياب أخت الزوج، قائلة: «ياإلهي! كيف عثروا علينا؟».

رفع جان مارك كتفيه. وبما أن أخت الزوج قد تركت باب الرواق وباب المرحاض مفتوحين حتى آخرهما، فلم يكونا يستطيعان أن يقولا لبعضهما شيئاً كثيراً. كانا يسمعان البول يسقط في ماء الحوض ممتزجاً مع صوت أخت الزوج التي كانت تعطيهما معلومات حول الأسرة وتعنف، بين حين وآخر، المتبولة.

تذكرت شانتال: في ذات يوم، أثناء عطلة في الڤيلا، كانت في المرحاض. وفجأة، شد أحدهم على المقبض. وبما أنها تكره إجراء محادثة عبر باب المرحاض فإنها لم تجب. وفي الطرف الآخر من المنزل، صرخ أحدهم ليهدئ فارغ الصبر: «إن شانتال هي التي هناك». وعلى الرغم من المعلومة، هز فارغ الصبر المقبض، أيضاً، عدة مرات كما لو أنه يريد الاحتجاج على صمت شانتال.

تبع صوت الماء الذي نزل في الحوض صوت البول، وكانت شانتال ماتزال تفكر في الڤيلا الاسمنتية الكبيرة، التي تنتشر فيها كل الأصوات دون أن يُستطاع تحديد الاتجاه الذي كانت تأتي منه. كانت معتادة على سماع تنهدات أخت زوجها أثناء المضاجعة (تنهدات كانت تريد لنفسها، بالتأكيد، أن تكون استفزازاً ليس هو بالجنسي بقدر ماهو أخلاقي: رفض تظاهري لكل الأسرار). وفي ذات يوم وصلت تنهدات الحب إليها، ولم تفهم إلا بعد بعض الوقت، بأن جدّة مصابة بالربو كانت في الطرف الآخر من هذا البيت الرنان تتنفس وهي تئن.

عادت أخت الزوج إلى الصالون وقالت: «اذهبي» لكورين التي ركضت إلى الغرفة المجاورة لتلحق بالطفلين الآخرين. ثم توجهت إلى جان مارك قائلة: «لاألوم شانتال لأنها هجرت أخي. ربما كان يجب أن تهجره في وقت أبكر ولكني ألومها على نسيانها إيانا». وقالت ملتفتة إلى شانتال: «ومع ذلك، ياشانتال، نحن نمثل جزءاً كبيراً من حياتك! لاتستطيعين أن تنكرينا، أن تمحينا، لاتستطيعين تغيير ماضيك! ماضيك هو ماهو عليه. لاتستطيعين أن تنكري أنك كنت سعيدة معنا. جئت أقول لرفيقك الجديد بأنه مرحب بكما، كلاكما، في بيتي!».

كانت شانتال تسمعها تتكلم وتقول لنفسها بأنها قد عاشت أطول مما ينبغي مع هذه الأسرة دون أن تبدي غيريتها، بحيث كان يجب أن تحس أخت زوجها، عن حق (تقريباً)، بالإهانة لأنها قطعت، بعد طلاقها، كل الصلات معهم. لماذا كانت على هذا القدر من اللطف والخضوع خلال سنوات زواجها؟ لم تكن، هي نفسها، تعرف الاسم الذي يجب أن تطلقه على موقفها آنذاك: إذعان؟ نفاق؟ لامبالاة؟ انضباط؟

عندما كان ابنها على قيد الحياة، كانت مستعدة تماماً لقبول

هذه الحياة الجماعية تحت مراقبة مستمرة مع انعدام النظافة الجماعي، مع العري شبه الإجباري حول المسبح، مع الاختلاط البريئ الذي كان يسمح لها بأن تعرف، من الآثار الدقيقة والمربكة مع ذلك، من دخل إلى المرحاض قبلها. أكانت تحب هذا؟ كلا، كانت ممتلئة قرفاً، ولكنه قرف هادئ، صامت، غير قتالي، مستسلم، مسالم تقريباً، ساخر بعض الشيء، غير متمرد أبداً. لو لم يكن طفلها قد مات لعاشت على هذا النحو حتى نهاية أيامها.

تضخمت الضجة في غرفة شانتال. صرخت أخت الزوج: «اصمتوا!»، ولكنه لم يظهر على صوتها الذي كان مرحاً أكثر منه مستاء أنه يريد تهدئة الزعيق، بل أن ينضم، بالأحرى، إلى الفرحة.

فرغ صبر شانتال ودخلت إلى غرفتها. كان الأطفال يتسلقون المقاعد، ولكن شانتال لاتراهم. نظرت، مسمّرة، إلى الخزانة. كان بابها مفتوحاً إلى آخره. وأمامها، على الأرض، انتشرت حمالات صدرها وسراويلها، وبينها الرسائل. ولم تلحظ، إلا فيما بعد، أن أكبر البنات قد لفت حمالة صدر حول رأسها بطريقة انتصب معها الجيب المكرس للثدي فوق شعرها كخوذة قوزاقي.

ضحكت أخت الزوج وهي تمسك بجان مارك، بود، من كتفه: «انظر إليها! انظر! انظر! إنها حفلة رقص تنكرية!».

رأت شانتال الرسائل مرمية على الأرض. صعد الغضب إلى رأسها. لم تكد تمر ساعة على مغادرتها لمكتب خبير الخطوط حيث عوملت باحتقار وحيث لم تستطع، وقد خانها جسدها الملتهب، أن تصمد لهما. كفاها الآن أن تحس بنفسها مذنبة: لم تعد هذه الرسائل تمثل، بالنسبة إليها، سراً مضحكاً يجب أن تخجل منه. إنها ترمز، من الآن فصاعداً، إلى زيف جان مارك، غدره، خيانته.

انتبهت أخت الزوج إلى ردة فعل شانتال الجليدية. ودون أن

تكف عن الكلام والضحك، مالت نحو البنت وحلت حمالة الصدر وأقعت لتلم الثياب الداخلية.

قالت لها شانتال بلهجة حازمة: كلا، كلا، أرجوك، اتركيها.

- كما تريدين، كما تريدين، كنت أريد حسن الصنيع.

قالت شانتال، وهي تنظر إلى أخت زوجها التي عادت لتستند إلى كتف جان مارك: «اعلم!». تكوّن لدى شانتال الانطباع بأنهما يليقان ببعضهما جيداً، بأنهما يشكلان زوجين كاملين، زوجي مراقبين، زوجي جواسيس. كلا، ليست لديها أدنى رغبة في إغلاق باب الخزانة. تركتها مفتوحة كدليل على النهب. قالت لنفسها: هذه الشقة لي، ولدي رغبة هائلة في أن أكون فيها وحدي، أن أكون، فيها، وحدي، بشموخ، بسيادة. وقالت ذلك بصوت مرتفع: «هذه الشقة لي وليس لأحد الحق في فتح خزائني والعبث بحوائجي الحميمة، لاأحد، أقول: لاأحد».

كانت هذه الكلمة الأخيرة موجهة إلى جان مارك أكثر منها بكثير لأخت زوجها. ولكنها، من أجل ألا تفضح شيئاً أمام الدخيلة، توجهت إليها، حصراً، قائلة: «أرجوك أن ترحلي.

قالت أخت الزوج متخذة وضعية الدفاع: مامن أحد عبث بحوائجك الحميمة».

كان كل جواب شانتال أن أشارت برأسها إلى الخزانة المفتوحة والثياب الداخلية والرسائل المنتشرة على الأرض.

قالت أخت الزوج: «يا إلهي، الأطفال قد لعبوا». وكان الأطفال صامتين وكأنهم أحسوا بالغضب يرتعش في الجو.

كررت شانتال قائلة: «أرجوك»، ودلتها على الباب.

كان في يد أحد الأطفال تفاحة أخذها من طبق على الطاولة.

قالت شانتال: «أعد التفاحة إلى حيث كانت!

صرخت أخت الزوج: إني أحلم!

ـ أعد التفاحة! من أعطاك إياها؟

ـ ترفض إعطاء طفل تفاحة، يخيل للمرء أنه يحلم».

أعاد الطفل التفاحة إلى الطبق وأمسكت أخت الزوج بيده، وانضم الآخران إليهما ورحلوا.

36

وجدت نفسها وحدها مع جان مارك، ولم تكن ترى أي فرق بينه وبين الذين أتوا على الرحيل.

قالت: «كنت قد نسيت، تقريباً، إني اشتريت في الماضي هذه الشقة لأكون، أخيراً حرة كي لايتجسس علي أحد، كي أستطيع أن أضع حوائجي حيث أريد وكي أكون واثقة من أنها ستبقى حيث وضعتها.

ـ قلت لكِ عدة مرات إن مكاني هو إلى جانب ذلك الشحاذ وليس إلى جانبك. أنا على هامش هذا العالم، وأنت وضعت نفسك في المركز.

ـ أقمت في هامشية مترفة جداً ولاتكلفك شيئاً.

ـ أنا مستعد، دائماً، لترك هامشيتي المترفة. ولكنك، أنت، لن تتخلي، قط، عن قلعة المحافظة هذه التي أقمت فيها بوجوهك المتعددة».

37

قبل دقيقة، كان جان مارك يريد تفسير الأشياء، الاعتراف

بتضليله، ولكن تبادل هذه العبارات الأربع جعل كل حوار مستحيلاً. لم يعد لديه مايقوله لأن هذه الشقة هي، حقاً، شقتها لاشقته. قالت له إنه أقام في هامشية مترفة جداً لاتكلفه شيئاً، وهذا صحيح: إنه يكسب خُمس ماتكسب هي، وكل علاقتهما قامت على الاتفاق الضمني على أنهما لن يعودا للحديث عن هذه اللامساواة أبداً.

كانا، كلاهما، واقفين وجهاً لوجه، مع طاولة تفصل بينهما. أخرجت مغلفاً من حقيبتها، مزقته ونشرت الرسالة: كانت تلك التي أتى على كتابتها إليها منذ أقل من الساعة. لم تختبئ أبداً، بل عرضت نفسها. ودون تردد، قرأت أمامه الرسالة التي كان يجب أن تبقيها سرية. ثم أعادتها إلى حقيبتها وألقت على جان مارك نظرة سريعة ولامبالية، تقريباً، ودون أن تقول شيئاً مضت إلى غرفتها.

فكر من جديد فيما قالت: «لايحق لأحد أن يفتح خزائني ويعبث بحوائجي الحميمة». لقد فهمت إذن، بطريقة لايعلمها إلا الله، أنه يعرف هذه الرسائل ومخبأها. أرادت أن تبين له أنها تعلم وأنها لاتبالي بذلك، إنها مصممة على أن تعيش كما تريد ودون الانشغال به، وهي مستعدة، من الآن فصاعداً، لقراءة رسائلها الغرامية أمامه. بهذه اللامبالاة، تستبق غياب جان مارك. لم يعد موجوداً بالنسبة إليها. لقد انتزعته من مكانه فعلاً.

بقيت طويلاً في غرفتها. كان يسمع الصوت الغاضب للمكنسة الكهربائية التي تعيد ترتيب الفوضى التي خلفها الدخلاء. ثم مضت إلى المطبخ. وبعد عشر دقائق نادته. جلسا إلى المائدة لتناول وجبة صغيرة باردة. للمرة الأولى، في حياتهما المشتركة، لم يتلفظا بكلمة. أوه، يالها من سرعة كانا يمضغان بها غذاء لم يكونا يحسان بمذاقه! ومن جديد انسحبت إلى غرفتها. ولما لم يكن يعلم

مايفعل (غير قادر على فعل شيء)، فقد ارتدى منامته ورقد على سريرهما العريض الذي كانا فيه، عادةً، معاً. ولكنها، هذه الليلة، لم تخرج من غرفتها. كان الوقت يمضي ولم يكن قادراً على النوم. وأخيراً نهض وألصق أذنه بالباب. سمع تنفساً منتظماً. كان هذا النوم الهادئ، هذه السهولة التي نامت بها، يعذبانه. بقي على هذا النحو طويلاً، ملتصق الأذن بالباب وقال لنفسه إنها أقل هشاشة بكثير مما كان قد خيل إليه، ولعلّه قد أخطأ حين اعتبرها الأضعف واعتبر نفسه الأقوى.

وبالفعل، من هو الأقوى؟ ربما كان هو، حقاً، عندما يكونان كلاهما، على أرض الحب. ولكنها هي الأقوى، وهو الأضعف، عندما تختفي أرض الحب تحت أقدامهما.

38

لم تكن، على سريرها الضيق، تنام النوم الجيد الذي يظنه، كان نوماً متقطّعاً مئة مرّة ومليئاً بأحلام كريهة ومفككة، عابثة، لامعنى لها وشبقية إلى حد متعب. وفي كل مرة تستيقظ فيها بعد هذا النوع من الأحلام، تحس بالضيق. فكرت في أن هذا هو أحد أسرار حياة المرأة، أية امرأة، هذا الامتزاج الليلي الذي يجعل كل وعود الوفاء، كل نقاء، كل براءة مشبوهة. في قرننا، لايبالون بذلك، ولكن شانتال تستمتع بتخيل الأميرة دوكليف أو فيرجيني برناردان دوسان بيير الطاهرة أو القديسة تيريز دافيلا أو الأم تيريزا التي تركض، في أيامنا، وهي تتصبب عرقاً، عبر العالم من أجل أعمالها الخيرية، تستمتع بتخيلهن خارجات من لياليهن كما من ماخور دعارات لايمكن الاعتراف بها، غير محتملة، غبية من أجل أن يعدن في النهار عذراوات وفاضلات. تلك كانت ليلتها: استيقظت عدة مرات،

دائماً بعد حفلات تهتك غريبة مع رجال لم تكن تعرفهم ويثيرون نفورها.

ارتدت ثيابها، مبكرة جداً، في الصباح لأنها لم تعد تريد أن تهوي، ثانية، إلى هذه المتع القذرة، ووضعت في حقيبة صغيرة، بعض الحوائج الضرورية لسفرة قصيرة. وماكادت أن تجهز حتى رأت جان مارك بالمنامة على باب غرفتها.

قال لها: «أين أنت ذاهبة؟

ـ إلى لندن.

ـ ماذا؟ إلى لندن؟ لماذا إلى لندن؟».

قالت بكل وقار: «أنت تعلم لماذا إلى لندن».

احمرّ جان مارك.

كررت قائلة: «أنت تعلم جيداً، أليس كذلك؟». ونظرت في وجهه. أي انتصار لها أن ترى، هذه المرة، أنه هو الذي احمرّ تماماً!.

قال، والنار تشتعل في خديه: «كلا، لاأعلم لماذا إلى لندن».

لم تكن تمل من رؤية احمراره.

قالت: «لدينا حلقة دراسية في لندن. عرفتُ ذلك مساء الأمس. أنت تفهم أنه لم يكن لدي المناسبة ولاالرغبة للتحدث عن ذلك إليك».

كانت واثقة من أنه لايستطيع تصديقها، واستمتعت بكون كذبتها مكشوفة، فاحشة، وقحة، عدوانية إلى هذا الحد.

«أوصيت على تاكسي. إني نازلة. سوف يكون هنا بين لحظة وأخرى».

ابتسمت له كما يبتسم المرء بمثابة وداع أو وعد باللقاء من جديد. وفي اللحظة الأخيرة، كما لو أن ذلك ضد نيتها، كما لو كانت حركة أفلتت منها، وضعت يدها اليمنى على خد جان مارك. كانت هذه الحركة قصيرة ولم تدم سوى ثانية أو ثانيتين، ثم أدارت ظهرها وخرجت.

39

أحس، على خده، بلمسة يدها أو، بعبارة أدق، بملامسة طرف ثلاثة أصابع، وكان أثراً بارداً، كما يحس المرء بعد لمس ضفدع. كانت مداعباتها، دائماً، بطيئة، هادئة، وكان يبدو له أنها تريد تمديد الزمن. في حين أن هذه الأصابع الثلاثة الموضوعة، بسرعة، على خده لم تكن مداعبة بل تذكيراً. فكما لو كانت قد اختطفتها عاصفة، أو موجة تحملها، لم يكن لديها سوى حركة واحدة عابرة لتقول: «ومع ذلك كنت هنا! مررت من هنا! لاتنسني على الرغم من كل ماسوف يحدث!».

ارتدى ملابسه بصورة آلية وفكر فيما قالاه لبعضهما في موضوع لندن. سألها «لماذا إلى لندن؟» وأجابته: «أنت تعلم جيداً لماذا إلى لندن». كان تلميحاً واضحاً إلى الرحيل المعلن في الرسالة الأخيرة. هذه الـ «أنت تعلم جيداً» كانت تعني: أنت تعرف الرسالة. ولكن هذه الرسالة التي أتت على أخذها من العلبة ما كان يمكن أن تُعرف إلا من المرسل ومنها. وبعبارة أخرى، انتزعت شانتال علامة سيرانو المسكين وأرادت أن تقول له: «أنت نفسك الذي دعوتني إلى لندن، فأنا، إذن، أطيعك».

ولكن، إذا كانت قد حزرت (ياإلهي، ياإلهي، كيف أمكنها أن تحزر؟) أنه، هو، كاتب الرسائل، فلماذا حملتها، إلى هذا الحد، على

محمل السوء؟ لماذا هي قاسية إلى هذا الحد؟ إذا كانت قد حزرت كل شيء، فلماذا لم تحزر، أيضاً، أسباب خدعته؟ بأي شيء ترتاب لديه؟ لم يكن هناك، وراء كل هذه الأسئلة، سوى شيء مؤكد واحد: أنه لايفهم. وفضلاً عن ذلك فهي بدورها، لم تفهم شيئاً. لقد اتخذت أفكارهما اتجاهين متعاكسين ويبدو له أنهما لن يلتقيا أبداً.

لم يكن الألم الذي يعانيه يتوق إلى أن يُسكّن، بل كان يريد، على العكس من ذلك، أن يتفاقم بالجرح ويحمله كما يحمل المرء، على مرأى من الجميع، ظلماً. لم يكن لديه الصبر لانتظار عودة شانتال ليفسر لها سوء التفاهم. كان في سريرته الداخلية، يعرف أن هذا هو التصرف المعقول، ولكن الألم لايريد الإصغاء إلى العقل لأن له عقله الخالص، وهو ليس عاقلاً. مايريده عقله اللاعقلاني هو أن تجد شانتال، عندما تعود، الشقة خالية دونه كما أعلنت أنها تريدها لتكون فيها وحيدة ودون تجسس. وضع في جيبه بضع أوراق مالية، كل ماله، ثم تردد، لحظة، فيما إذا كان يجب أو لايجب أن يأخذ المفاتيح. انتهى إلى تركها على الطاولة الصغيرة عند المدخل. عندما ستراها، ستفهم أنه لن يعود. لن يبقى هنا على سبيل الذكرى، سوى بعض السترات والقمصان في الخزانة، سوى بعض الكتب في المكتبة.

خرج دون أن يعرف ماذا سيفعل. المهم هو أن يغادر هذه الشقة التي لم تعد شقته، أن يغادرها قبل أن يقرر إلى أين سيذهب بعد ذلك. لن يسمح لنفسه بالتفكير في ذلك إلا عندما سيصبح في الطريق.

ولكنه أحس، عندما أصبح في أسفل البناية إحساساً غريباً بأنه خارج الواقع. يجب أن يتوقف في منتصف الرصيف ليستطيع

التفكير: أين يذهب؟ في رأسه بعض أفكار متغايرة جداً: البيريغور حيث يسكن قسم من أسرته الفلاحية التي تستقبله دائماً بسرور، فندق رخيص ما في باريس. وفيما هو يفكر توقف تاكسي عند الإشارة الحمراء فأشار له.

40

لم يكن، في الطريق، بالطبع، أي تاكسي ينتظر شانتال، ولم يكن لديها أدنى فكرة أين تذهب. كان قرارها ارتجالاً كلياً سببه الاضطراب الذي كانت عاجزة عن التحكم فيه. لاتريد في هذه اللحظة سوى شيء واحد: أن لاتراه خلال يوم وليلة على الأقل. فكرت في غرفة في فندق، هنا بالذات، في باريس، ولكن سرعان مابدت لها الفكرة بلهاء: ماذا ستفعل طيلة النهار؟ أتتنزه في الطرقات كي تتنفس عفنها؟ أتحبس نفسها في الغرفة؟ ماذا ستفعل فيها؟ ثم فكرت في أن تأخذ السيارة وتمضي إلى الريف بصورة عشوائية لتجد مكاناً هادئاً تبقى فيه يوماً أو يومين. ولكن أين؟

وجدت نفسها، دون أن تعرف لماذا، عند محطة أوتوبوس. تكونت لديها رغبة في أن تصعد إلى أول أتوبوس يمر من هناك وأن تدع نفسها فيه حتى آخر الخط. توقف أوتوبوس، ودهشت عندما رأت اسم محطة الشمال بين أسماء المواقف التي كان يخدمها. إنها المحطة التي تمضي منها القطارات إلى لندن.

تولد لديها الانطباع بأن مؤامرة مصادفات توجهها، وأرادت أن تقنع نفسها بأن جنية راعية جاءت لنجدتها. لندن: إذا كانت قد قالت لجان مارك بأنها ستذهب إليها، فذلك كان فقط لإعلامه على هذا النحو بأنها كشفته. وجاءتها الآن فكرة: ربما أخذ جان مارك

وجهة لندن مأخذ الجد، ربما سيمضي للبحث عنها في المحطة. والتحمت بهذه الفكرة أخرى أضعف تكاد لاتسمع، كصوت عصفور صغير جداً: إذا كان جان مارك هناك فإن سوء التفاهم الطريف هذا سينتهي. كانت هذه الفكرة بمثابة مداعبة، ولكنها مداعبة أقصر مما ينبغي لأنها ثارت، بعد ذلك مباشرة من جديد ضده وصدت كل حنين.

ولكن أين تذهب وماذا ستفعل؟ وماذا لو ذهبت، حقاً، إلى لندن؟ لو تركت أكذوبتها تتجسد مادياً؟ تذكر أنه مازال، في مفكرتها، عنوان بريتانيكوس. بريتانيكوس؟ كم يمكن أن يكون عمره الآن؟ إنها تعلم أن الالتقاء به قد يكون أقل الأشياء احتمالاً في العالم. ماذا إذن؟ فليكن! سوف تصل إلى لندن، تتنزه فيها تأخذ غرفة في فندق وتعود غداً إلى باريس.

لم ترق لها هذه الفكرة؛ كانت عندما غادرت المنزل تفكر في استعادة استقلالها، وهي، في الحقيقة، تدع قوة مجهولة وغير مضبوطة تتلاعب بها. الذهاب إلى لندن، هذا القرار الذي أملته عليها المصادفات السخيفة، جنون. لماذا تظن أن مؤامرة المصادفات هذه تعمل من أجلها؟ لماذا تعدها جنية طيبة؟ وماذا لو كانت الجنية شريرة وتتآمر من أجل أن تضيّعها؟ وعدت نفسها بأنها عندما سيتوقف الأوتوبوس أمام محطة الشمال لن تتحرك، سوف تتابع طريقها.

ولكنها فاجأت نفسها، عندما توقف الأوتوبوس، وهي تنزل. واتجهت، كما لو أن قوة تسحبها، نحو بناء المحطة.

في الساحة الواسعة، رأت الدرج الرخامي الذي يقود إلى أعلى، إلى قاعة الانتظار المخصصة لركاب لندن. أرادت النظر إلى المواعيد، ولكنها، قبل أن تستطيع ذلك، سمعت اسمها وسط

ضحكات. توقفت ولمحت زملاءها متجمعين تحت الدرج. وعندما فهموا أنها عثرت عليهم، أصبحت ضحكتهم أقوى أيضاً. كانوا مثل تلاميذ نجحوا في مزحة جيدة، في عملية مسرحية رائعة.

«نعرف مايجب أن نفعل لتأتي معنا! لو علمت أننا هنا لاخترعت، كما تفعلين دائماً، عذراً! أيتها الفردية الملعونة!». ومن جديد، انفجروا ضاحكين.

كانت شانتال تعلم أن لوروا يخطط لحلقة دراسية في لندن، إلّا أنه كان يجب ألا تتم إلا بعد ثلاثة أسابيع. كيف أمكن أن يوجدوا هنا اليوم؟ ومرة جديدة، أحست بهذا الشعور الغريب بأن مايحدث ليس حقيقياً، لايمكن أن يكون حقيقياً. ولكن هذه الدهشة كانت متبوعة بأخرى: فعلى عكس كل ماكان يمكن لها، هي نفسها، أن تفترضه، أحست بنفسها سعيدة سعادة صادقة بوجود زملائها، ممتنة لكونهم حضّروا لها هذه المفاجأة.

أخذت زميلة شابة بذراعها وهي تصعد الدرج، وقالت لنفسها إن جان مارك لايفعل سوى سحبها كل الوقت من الحياة التي كان ينبغي أن تكون حياتها. كانت تسمعه يقول: «وضعتِ نفسك في المركز»، وأيضاً «أقمتِ في قلعة المحافظة». ردت عليه الآن قائلة: نعم. ولن تمنعني من البقاء فيها.

قادتها زميلتها التي مازالت تتأبط ذراعها، وسط الحشد، نحو نقطة مراقبة الشرطة الواقعة أمام درج آخر ينزل المسافرون منه إلى الرصيف. وكما لو كانت سكرى، تابعت شجارها الصامت مع جان مارك وهتفت به: من هو القاضي الذي قرر أن المحافظة شر واللامحافظة خير؟ أليست المحافظة اقتراباً من الآخرين؟ أليست المحافظة هذا الموضع الكبير للقاءات يتوارد فيها الجميع تكون الحياة، فيه، أشد مايمكن لها أن تكون كثافة وحرارة؟

رأت من أعلى الدرج قطار لندن حديثاً وأنيقاً وقالت لنفسها

أيضاً: سواء أكان من حسن الحظ أم من سوئه أن يكون المرء قد ولد على هذه الأرض، فإن أفضل طريقة ليُمضي حياته فيها هي أن يدع، مثلي الآن، لحشد مرح وصاخب يتقدم أن يحمله.

41

قال، وهو جالس في التاكسي: «محطة الشمال»، وكانت تلك لحظة الحقيقة: إنه يستطيع أن يغادر الشقة، يستطيع أن يلقي بالمفاتيح في السين، أن ينام في الطريق، ولكنه لايملك القوة على الابتعاد عنها. الذهاب للبحث عنها في المحطة بادرة يأس، ولكن قطار لندن هو القرينة الوحيدة التي تركتها له، وجان مارك ليس في وضع يسمح له بأن يهمل إمكانية كونها توجهه إلى الطريق الصحيح مهما بدت هذه الامكانية ضئيلة.

عندما وصل إلى المحطة كان قطار لندن هناك. تسلق الدرجات أربعاً أربعاً واشترى بطاقته. كان معظم المسافرين قد مروا من قبل، وهو آخر من نزل الدرج الذي كان تحت رقابة صارمة. كان رجال شرطة يتجولون، على طول القطار، ومعهم كلابهم من نوع كلاب الرعاة الألمان المدربة على اكتشاف المتفجرات. صعد إلى مقطورته المليئة بيابانيين يحملون آلات تصوير حول أعناقهم. وجد مكاناً له وجلس.

عند ذلك، قفزت عبثية سلوكه أمام عينيه. إنه في قطار ليست فيه كما تدل كل الاحتمالات، تلك التي يبحث عنها. وسوف يكون، بعد ثلاث ساعات، في لندن دون أن يعرف لماذا هو فيها. إن معه مايكاد يكفي، بالضبط، لدفع أجرة رحلة العودة. نهض مذعوراً وخرج إلى الرصيف يتملكه الاغراء المبهم بأن يعود إلى البيت. ولكن كيف يعود دون المفاتيح؟ لقد وضعها على طاولة المدخل

الصغيرة. كان يعلم، الآن وقد استرد وضوح الذهن، أن تلك الحركة لم تكن سوى لعبة عاطفية لعبها على نفسه: إن لدى الحارسة مفتاحاً ثانياً ستعطيه إياه بصورة طبيعية. نظر متردداً إلى طرف الرصيف ورأى أن كل المخارج كانت مغلقة. أوقف شرطياً وسأله كيف يخرج من هنا. شرح له الشرطي أن ذلك ليس ممكناً. فلأسباب أمنية، عندما يصعد المرء إلى قطار، فإنه لايستطيع أن يخرج منه. فيجب أن يبقى كل راكب كضمانة حية لكونه لم يضع فيه قنبلة، فهناك إرهابيون إسلاميون، وهناك إرهابيون إيرلنديون. وهم لايحلمون إلا بمذبحة في نفق تحت البحر.

عاد إلى الصعود. ابتسمت له مراقبة، ابتسم له كل الموظفين وقال لنفسه: هكذا يُصحب بابتسامات عديدة ومكثفة هذا الصاروخ المنطلق في نفق الموت، هذا الصاروخ حيث محاربو الملل والسيّاح الأمريكيون والألمان والإسبان والكوريون مستعدون للمجازفة بحياتهم من أجل معركتهم الكبرى. جلس، ومنذ أن أقلع القطار غادر مقعده ومضى يبحث عن شانتال.

دخل إلى مقطورة في الدرجة الأولى. كان في أحد جانبي الرواق، مقاعد لراكب واحد، ومقاعد لاثنين في الجانب الآخر. وفي وسط المقطورة، كانت المقاعد مدارة وجهاً لوجه بحيث كان المسافرون يتحدثون بصخب معاً. كانت شانتال بينهم. إنه يراها من ظهرها: تعرف على شكل رأسها المثير للعاطفة والمضحك معاً، بضفيرة شعرها التي انقضى زيها. إنها جالسة إلى جانب النافذة وتشارك في المحادثة التي كانت حامية. لايمكن لهؤلاء أن يكونوا سوى زملائها في الوكالة فهي لم تكذب إذن! كلا، مهما بدا ذلك غريباً فهي بالتأكيد لم تكذب.

بقي دون حراك. سمع عدة ضحكات ميز بينها ضحكة شانتال. كانت مرحة، نعم، كانت مرحة، وهذا مايمزق قلبه. نظر إلى

حركاتها المليئة بحيوية لم يكن يعرفها فيها. لم يكن يسمع ماتقول، ولكنه يرى يدها تعلو وتهبط بقوة، هذه اليد، يستحيل عليه أن يتعرف إليها. إنها يد شخص آخر. لم يكن لديه الانطباع بأن شانتال تخونه، كان ذلك شيئاً آخر. كان يبدو له أنها لم تعد موجودة بالنسبة إليه، أنها مضت إلى مكان آخر، في حياة أخرى لن يعود يتعرف عليها إذا صادفها فيها.

42

قالت شانتال بلهجة مقاتلة: «ولكن، كيف أمكن لتروتسكي أن يصبح مؤمناً؟ أين المنطق؟

ـ أنت تعرفين، ياصديقتي العزيزة، صيغة ماركس: تغيير العالم.

ـ بالتأكيد».

كانت شانتال جالسة قرب النافذة، تجاه أكبر زميلاتها في الوكالة سناً، السيدة الأنيقة بأصابعها المغطاة بالخواتم. وتابع لوروا، إلى جانب هذه الأخيرة، قائلاً: «إلا أن قرننا قد أفهمنا شيئاً عظيماً: الإنسان غير قادر على تغيير العالم، ولن يغيره قط. هذه هي النتيجة الأساسية لتجربتي كثوري. وهي نتيجة مقبولة، فضلاً عن ذلك، كلياً من الجميع. ولكن هناك نتيجة أخرى تمضي أبعد من ذلك. إنها لاهوتية وتقول: ليس للإنسان الحق في أن يغير ماخلقه الله. يجب المضي بهذا المنع إلى النهاية».

كانت شانتال تنظر إليه بشغف؛ إنه لايتحدث كمن يعطي دروساً، بل كمستفز. هذا ماتحبه شانتال لديه: هذه النبرة الجافة لرجل يحوّل كل مايقوم به إلى استفزاز، في تقليد الثوريين أو

الطليعيين المقدس. لاينسى أبداً أن «يدهش البورجوازيين» حتى لو قال أكثر الحقائق اصطلاحية. وفضلاً عن ذلك، ألا تصبح أكثر الحقائق استفزازاً («البورجوازيون إلى الموت») أشد الحقائق اصطلاحية حين تصل إلى السلطة؟ إن أي اصطلاح يمكن، في أي وقت كان، أن يصبح استفزازاً وأي استفزاز يمكن أن يصبح اصطلاحاً. المهم هو إرادة المضي حتى النهاية بكل موقف. تخيلت شانتال لوروا لدى اجتماعات ثورة 1968 الطلابية الصاخبة يطلق، بطريقته الذكية، المنطقية والجافة، الأحكام التي كانت كل مقاومة ضدها من جانب العقل السليم محكوماً عليها بالانهيار: ليس للبورجوازية الحق في الحياة، الفن الذي لاتفهمه الطبقة العاملة يجب أن يزول، لاقيمة للعلم الذي يخدم مصالح البورجوازية، الذين يعلّمونه يجب أن يطردوا من الجامعة، لاحرية لأعداء الحرية. وكلما زادت الجملة التي كان يتلفظ بها عبثية زاد اعتزازه بها لأن الذكاء الكبير جداً هو، وحده، القادر على حقن الأفكار المجنونة بحس منطقي.

ردت شانتال قائلة: «أنا موافقة، وأعتقد، أيضاً، أن كل التغييرات ضارة. وفي هذه الحالة يكون من واجبنا حماية العالم من التغييرات. المؤسف هو أن العالم لايعرف إيقاف السير المجنون لتحولاته...

قاطعها لوروا قائلاً: التي ليس الإنسان، مع ذلك، سوى أداتها. اختراع قاطرة يحتوي على بذرة مخطط طائرة يقود حتماً إلى صاروخ كوني. هذا المنطق محتوى في الأشياء نفسها، وهي بعبارة أخرى جزء من المشروع الإلهي. تستطيعين مبادلة الإنسانية كاملة بأخرى، ولكن ذلك لايمنع كون التطور الذي يقود من الدراجة إلى الصاروخ سيبقى سليماً. والإنسان ليس مؤلف هذا

التطور بل هو منفّذ له، بل ومنفّذ مسكين لأنه لايعرف معنى ماينفذه. هذا المعنى لايعود إلينا، لايعود إلا إلى الله ولسنا هنا إلا لنطيعه من أجل أن يستطيع صنع مايروق له».

أغمضت عينيها: خطرت كلمة «اختلاط» العذبة في ذهنها وطبعتها بطابعها. تلفظت بصمت لنفسها بقولها «اختلاط الأفكار». كيف يمكن لهذه المواقف المتناقضة إلى هذا الحد أن تتعاقب في رأس واحد مثل عشيقتين في سرير واحد؟ كان ذلك يغيظها في الماضي، أما الآن، فهو يسحرها: لأنها تعلم أن التعارض بين ماكان يقوله لوروا في الماضي ومايعبر عنه اليوم، ليس له أية أهمية لأن كل الأفكار تتساوى، لأن كل التأكيدات وضروب اتخاذ المواقف ذات قيمة واحدة، يستطيع أحدها أن يحتك بالآخر، يتصالب معه، يداعبه، يختلط به، يلامسه، يربت عليه، يضاجعه.

وقف صوت عذب ومرتعش قليلاً في وجه شانتال: «ولكن لماذا نحن إذن في هذه الدنيا؟ لماذا نعيش؟»

كان ذلك هو صوت السيدة الأنيقة الجالسة إلى جانب لوروا الذي تعبده. تخيلت شانتال لوروا محاطاً بامرأتين يجب أن يختار بينهما: سيدة رومنطيقية وسيدة لاتؤمن بشيء. سمعت الصوت الصغير المتوسل الذي لايريد التخلي عن معتقداته الجميلة، ولكنه (حسب خيال شانتال) يدافع عنها برغبة غير معترف بها في أن يراها هابطة على يد بطله الشيطاني الذي يلتفت، في هذه اللحظة، إليها:

«لماذا نعيش؟ لتأمين لحم بشري لله. لأن الكتاب المقدس لايطلب إلينا، ياسيدتي العزيزة، البحث عن معنى الحياة. إنه يطلب إلينا التناسل. أحبوا بعضكم بعضاً وتناسلوا. افهمي جيداً: معنى «أحبوا بعضكم بعضاً» هذه محددة بهذه الـ «تناسلوا». هذه الـ

«أحبوا بعضكم بعضاً» لاتعني أبداً، إذن، الحب الخيري، المتعاطف، الروحي أو العاطفي، ولكنه يعني ببساطة شديدة: «مارسوا الحب!»، «تضاجعوا!»... (جعل صوته أعذب ومال نحوها)... «جامعوا!» (نظرت السيدة في عينيه بإذعان، كتلميذ مخلص) «على هذا وعليه فقط يقوم معنى الحياة البشرية. وكل مابقي تفاهة».

محاكمة لوروا جافة كموسى، وشانتال موافقة عليها: الحب كإثارة فردين، الحب كوفاء، كارتباط عاطفي بشخص واحد، كلا، لاوجود لهذا. وإذا كان موجوداً فذلك بوصفه عقاباً ذاتياً، عمى طوعياً، هرباً إلى دير. قالت لنفسها إن الحب، حتى إن وجد، لايجب أن يوجد، وهذه الفكرة لم تكن تجعلها مريرة، بل أحست من جرائها سعادة تنتشر في جسمها. فكرت في مجاز الوردة التي تعبر كل الرجال وقالت لنفسها إنها عاشت في حبس حب وهي مستعدة الآن لإطاعة أسطورة الوردة والذوبان في عطرها المسكر. عند هذه النقطة من تأملاتها تذكرت جان مارك. هل بقي في المنزل؟ هل خرج؟ تساءلت عن ذلك دون أدنى انفعال: كما لو أنها تتساءل عما إذا السماء تمطر في روما أو عما إذا الطقس صحو في نيويورك.

ومع ذلك، ومهما كانت عديمة المبالاة، فإن ذكرى جان مارك أرغمتها على إدارة رأسها. في آخر المقطورة رأت شخصاً يدير ظهره وينتقل إلى المقطورة المجاورة. شعرت بأنها تتعرف على جان مارك وهو يحاول التواري عن نظرها. أكان هو حقاً؟ بدلاً من البحث عن إجابة نظرت من النافذة: كان المنظر يتزايد قبحاً، والحقول تتزايد تلوناً باللون الرمادي، والسهول مزروعة بعدد متزايد الحجم من الأعمدة المعدنية والأبنية الأسمنتية والأسلاك. أعلن صوت من مكبر أن القطار سينزل في الثواني التالية إلى

ماتحت البحر. وبالفعل، رأت ثقباً مستديراً وأسود كان القطار ماضياً كأفعى للانزلاق فيه.

43

قالت السيدة الأنيقة: «نحن ننزل»، وفضح صوتها إثارة خائفة.

أضافت شانتال التي تفترض أن من شأن لوروا أن يريد السيدة أكثر سذاجة أيضاً، أكثر اندهاشاً أيضاً، أكثر خوفاً أيضاً: «إلى الجحيم». كانت تحس بنفسها، الآن، مساعدته الشيطانية. وتستمتع بفكرة أن تقود هذه السيدة الأنيقة والمحتشمة إلى سريره الذي لم تكن تتخيله في فندق فاخر في لندن، بل على منصة وسط نيران، أنات، دخان وشياطين.

لم يعد هناك مايُرى من النافذة، فقد كان القطار في نفق، وكان لديها شعور بالابتعاد عن أخت زوجها، عن جان مارك، عن كل مراقبة، عن كل تجسس، بالابتعاد عن حياتها، حياتها التي تلتصق بها، تثقل عليها. انبثقت كلمات في ذهنها: «غاب عن الأنظار»، وفوجئت بأن السفر نحو الزوال لم يكن كئيباً، بل عذباً وفرحاً برعاية ميثولوجيا الوردة لديها.

قالت السيدة قلقة: «نحن نزيد عمقاً في النزول.

قالت شانتال: إلى حيث توجد الحقيقة

وزايد لوروا قائلاً: إلى حيث توجد الإجابة عن سؤالك: لماذا نعيش؟ ماهو الجوهري في الحياة؟».

حدق في السيدة وقال: «الجوهري في الحياة هو تخليد الحياة: إنه الولادة ومايسبقها، الجماع، الإغواء، أي القُبل، الشعر

الذي يتطاير في الهواء، السراوايل، وحمالات الصدر جيدة التفصيل، ثم كل مايجعل الناس قادرين على الجماع، أي الأكل، وهو ليس الطعام الفاخر، هذا الشيء النافل الذي لم يعد أحد يرى له قيمة، بل الطعام الذي يشتريه كل الناس، ومع الأكل التبرز، لأنك تعلمين، ياسيدتي العزيزة، ياسيدتي الجميلة المعبودة، المكانة الكبيرة التي يحتلها في مهنتنا امتداح الورق الصحي والأسرّة والغسيل والأكل. إنها دائرة الإنسان المقدسة، وليست رسالتنا اكتشافها، استيعابها وتعيين حدودها فقط، بل أيضاً جعلها جميلة، تحويلها إلى أغنية. بفضل نفوذنا، الورق الصحي وردي اللون، حصراً تقريباً، وإنها لواقعة ذات دلالة مرتفعة أوصيك، ياسيدتي العزيزة والقلقة، بأن تتأمليها جيداً.

قالت السيدة: ولكن ذلك إذن هو البؤس، البؤس».

وكان صوتها يرتجف كشكوى امرأة مغتصبة وقالت: «إنه البؤس المجمّل! نحن مجمّلو البؤس!

قال لوروا: نعم، بالضبط». وسمعت شانتال في «بالضبط» هذه المتعة التي كان يستمدها من شكوى السيدة الأنيقة.

«ولكن، أين عظمة الحياة في هذه الحالة؟ من نحن إذا كنا محكومين بالأكل والجماع والورق الصحي؟ وإذا لم نكن قادرين إلا على هذا فأي اعتزاز نستطيع أن نستمده من كوننا، كما يقال لنا، كائنات حرة؟»،

نظرت شانتال إلى السيدة وفكرت بأنها الضحية المناسبة تماماً لحفل جنسي. تخيلت أن تُعرّى ويقيد جسدها المسن والمتميز وتُرغم على أن تكرر حقائقها الساذجة بصوت مرتفع وشكاء في حين يضاجع الجميع ويعرضون أجسادهم أمامها...

قاطع لوروا خيالات شانتال قائلاً: «الحرية؟ بعيش بؤسك تستطيعين أن تكوني تعسة أو سعيدة. على هذا الاختيار تقوم

حريتك: أنت حرة في أن تذيبي فرديتك في قدر الجمهرة مع شعور بالهزيمة، أو بغبطة. اختيارنا، ياسيدتي العزيزة، هو الغبطة».

شعرت شانتال بابتسامة ترتسم على وجهها. حفظت جيداً ما قاله لوروا: حريتنا الوحيدة هي في الاختيار بين المرارة والمتعة. فبما أن تفاهة كل شيء قدرنا فلا ينبغي أن نحملها كعاهة، بل أن نعرف كيف نستمتع بها. كانت تنظر إلى وجه لوروا الجامد، إلى الذكاء الفتان بقدر ماهو فاسد هذا الذي يشع منه. تنظر إليه بود، ولكن دون رغبة وقالت لنفسها (كما لو أنها تكنس بيدها حلمها السابق) إنه حوّل، منذ زمن طويل، جوهر كل طاقته الذكرية إلى هذه القوة في منطقه القاطع، إلى هذه السلطة التي يمارسها على مجموعة العمل لديه. تخيلت نزولهم من القطار، في حين يواصل لوروا إخافة السيدة التي تعبده بأقواله، سوف تمضي لتضيع سراً في كشك هاتف لتفلت بعد ذلك من الجميع.

44

خرج اليابانيون والأمريكيون والإسبان والروس، بآلات تصوير حول أعناقهم جميعاً، من القطار، وحاول جان مارك أن لاتغيب شانتال عن بصره. تقلص الموج البشري، فجأة، مختفياً تحت الرصيف عن طريق سلم دوار. وفي أسفل السلم. في الساحة هُرع رجال يحملون كاميرات يتبعهم حشد من الأطفال ويسدون عليهم الطريق. أُرغم ركاب القطار على التوقف. سمعت تصفيقات وصيحات في حين كان أطفال يهبطون درجاً جانبياً. كانت على رؤوسهم جميعاً، خوذات من مختلف الألوان كما لو أنهم فرقة رياضيين، متسابقين على الدراجات أو متزلجين. كانوا هم الذين يصوّرون. وقف جان مارك على أطراف أصابعه ليلمح شانتال من فوق الرؤوس. أخيراً رآها. كانت في الجانب الآخر من صف

الأطفال في كشك هاتفي، كانت السماعة على أذنها وتتكلم. حاول جان مارك أن يشق له درباً. دفع بمصور ركله غاضباً. لقد صدمه جان مارك وكاد أن يوقع الكاميرا. اقترب شرطي وأمر جان مارك بالتوقف حتى ينتهي التصوير. وعند ذلك، وخلال ثانية أو اثنتين، التقت عيناه بنظرة شانتال التي كانت خارجة من الكشك. اندفع من جديد ليعبر من خلال الحشد. لوى له الشرطي ذراعه بوضعية آلمته إلى حد جعلته ينثني على نفسه، وغابت شانتال عن نظره.

مر آخر طفل بخوذة، وعند ذلك فقط أرخى الشرطي قبضته وتركه. نظر نحو كشك الهاتف، ولكنه كان خالياً. توقفت قريباً منه مجموعة من الفرنسيين عرف فيهم زملاء شانتال.

سأل إحدى الفتيات: «أين شانتال؟».

أجابت بلهجة لوم: «أنت الذي يجب أن تعرف ذلك! كانت مرحة جداً، وعندما خرجنا من القطار اختفت!».

قالت الأخرى، وهي أكثر بدانة، متضايقة: «رأيتك في القطار. لقد أشرت إليها. رأيت كل شيء. لقد أفسدت كل شيء».

قاطعهم صوت لوروا قائلاً: «فلنذهب!».

سألت الفتاة: «وشانتال؟

ـ تعرف العنوان.

قالت السيدة الأنيقة ذات الأصابع المغطاة بالخواتم: هذا السيد يسأل عنها أيضاً».

كان جان مارك يعلم جيداً أن لوروا يعرفه كما يعرفه هو بدوره. قال له: «نهارك سعيد.

رد لوروا قائلاً: نهارك سعيد»، وابتسم له قائلاً: «لقد رأيتك تتقاتل، واحد ضد الجميع».

خُيل لجان مارك أنه يشعر ببرود في صوته. إنه، في المحنة التي كان فيها، بمثابة يد ممدودة يريد الإمساك بها. كان بمثابة شرارة تعده، في لحظة، بصداقة، الصداقة بين رجلين مستعدين، دون أن يعرفا بعضهما، لمتعة صداقة مفاجئة فقط للتعاون. كان كما لو أن حلماً جميلاً قديماً يهبط نحوه.

قال واثقاً: «أتستطيع أن تذكر لي اسم الفندق؟ أود أن أهتف لأعرف ما إذا كانت شانتال فيه».

سكت لوروا ثم قال: «ألم تعطك إياه؟

ـ كلا!

قال بلطف، بأسف تقريباً: في هذه الحالة اعذرني لاأستطيع أن أعطيك إياه».

عادت الشرارة، وقد انطفأت، إلى السقوط. ومن جديد أحس جان مارك بالألم في كتفه، من أثر مسكة الشرطي. خرج من المحطة متوحداً. أخذ، وهو لايعلم أين يذهب، يمشي في الطرق عشوائياً.

أخرج، وهو يمشي، أوراقه المالية من جيبه وعدها مرة أخرى. كان لديه مايكفي لرحلة العودة، ولكن لاشيء أكثر. سوف يستطيع إذا قرر أن يعود فوراً، وسوف يكون هذا المساء في باريس. سيكون ذلك بديهياً أكثر الحلول معقولية. ماذا سيفعل هنا؟ ليس لديه شيء يفعله. ومع ذلك فلا يستطيع أن يرحل. إنه لن يقرر الرحيل أبداً، لايستطيع مغادرة لندن إذا كانت شانتال فيها.

ولكنه لايستطيع النزول في فندق، لايستطيع أن يأكل حتى شطيرة لأنه يجب أن يحتفظ بنقوده لسفرة العودة، أين سينام؟ وعلى الفور علم أن ماكان يُحدّث عنه شانتال في أحيان كثيرة

يتأكد أخيراً: إنه، في أعمق مانذر له، هامشي، هامشي عاش في اليسر حقاً، ولكن ذلك بفضل ظروف غير ثابتة ووقتية تماماً فقط. هاهو، فجأة، كما هو، مردود إلى مابين الذين ينتمي إليهم: إلى الفقراء الذين لاسقف لهم ليؤوي هجرانه.

تذكر مناقشات مع شانتال وأحس بالحاجة الطفلية كي تكون أمامه، فقط من أجل أن يقول لها: ترين، أخيراً، بأني كنت على حق، إن ذلك لم يكن تصنعاً، إني، حقاً، من أنا. هامشي، شخص لامأوى له، متشرد.

45

هبط الليل وبرد الجو. اتبع طريقاً يحده صف من البيوت، من جهة، وحديقة محاطة بسياج مدهون بالأسود. وهناك، على الرصيف الذي يوازي الحديقة، يوجد مقعد خشبي. جلس عليه. شعر بتعب شديد وانتابته رغبة في وضع ساقيه على المقعد والتمدد. فكر: هكذا بالتأكيد يبدأ الأمر. في ذات يوم يضع المرء ساقيه على مقعد ثم يهبط الليل وينام. وهكذا يصطف يوماً بين المتشردين ويصبح واحداً منهم.

من أجل ذلك سيطر بكل قواه على تعبه، وظل جالساً مستقيماً جداً كتلميذ جيد في قاعة صف. كانت وراءه أشجار وأمامه، في الجانب الآخر من الطريق، منازل. كلها متشابهة بيضاء، بطابقين وعمودين أمام المدخل وأربعة نوافذ في كل طابق. كان ينظر، بانتباه، إلى كل من يمر بهذا الطريق القليل الرواد. كان مصمماً على البقاء حتى يرى شانتال. الانتظار هو الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يفعله من أجلها، من أجلهما.

فجأة، على مسافة حوالى ثلاثين متراً إلى اليمين، أضاءت كل نوافذ بيت، وفي الداخل كان أحدهم يرخي ستارات حمراء. قال

لنفسه إن رفقة اجتماعية اجتمعت فيه من أجل احتفال. ولكنه دهش لعدم رؤيته أحداً يدخل. هل كانوا هناك منذ وقت طويل وأتوا الآن بالضبط على إضاءة الأنوار؟ أم ربما نام، دون أن يدري، ولم يشاهد وصولهم؟ ياإلهي! وماذا لو أنه في نومه قد فوت على نفسه رؤية شانتال؟ وعلى الفور صعقته فكرة حفلة جنس جماعي. سمع كلمات: «أنت تعلم، جيداً، لماذا إلى لندن؟» و«تعلم جيداً» هذه بدت له، فجأة، بإضاءة أخرى: لندن هي مدينة الانكليزي، البريطاني، بريتانيكوس. إنه هو الذي هتفت له من المحطة، ومن أجله أفلتت من لوروا، من زملائها، منهم جميعاً.

استولت عليه الغيرة، هائلة ومؤلمة. ليست الغيرة المجردة، العقلية التي أحس بها عندما طرح على نفسه أمام الخزانة المفتوحة السؤال النظري، تماماً، حول قدرة شانتال على خيانته، بل الغيرة التي عرفها في شبابه، الغيرة التي تخترق الجسد، التي توجعه، التي لاتُحتمل. تخيل شانتال تهب نفسها لآخرين، مطيعة ومخلصة، ولم يعد يستطيع الصمود. نهض وركض نحو المنزل. كان بابه الأبيض تماماً مضاء بفانوس. أدار القبضة، فانفتح الباب، دخل ورأى درجاً مفروشاً بسجادة حمراء، سمع ضجة أصوات في الأعلى فصعد ووصل إلى سطيحة درج الطابق الأول الكبيرة المشغولة في كل عرضها بعلّاقة عليها معاطف، ولكن عليها أيضاً (وتلك ضربة جديدة في القلب)، فساتين نسائية وبضعة قمصان رجالية. مر غاضباً، عبر كل هذه الثياب ووصل إلى باب كبير بمصراعين، أبيض هو الآخر، عندما هبطت يد ثقيلة على كتفه الموجع. التفت وأحس، على خده، بنَفَس رجل متين البنيان يرتدي قميصاً، ذراعاه موشومان، يكلمه بالانكليزية.

حاول نفض هذه اليد التي كانت تسبب له ألماً متزايداً وتدفع به نحو الدرج. وهناك حاول أن يقاوم ففقد توازنه ولم ينجح في التعلق بالحاجز إلا في اللحظة الأخيرة. هبط الدرج مغلوباً. تبعه

الرجل الموشوم وتوقف جان مارك متردداً أمام الباب، فصرخ به بشيء ما بالانكليزية وأمره بذراع مرفوعة بالخروج.

46

كانت صورة الجنس الجماعي ترافق شانتال منذ زمن طويل، في أحلامها المبهمة، في خيالها وحتى في محادثاتها مع جان مارك الذي قال لها ذات يوم (يوم بعيد جداً): أود حقاً أن أكون معك فيها ولكن بشرط: أن يتحول كل من المشتركين في لحظة الاستمتاع إلى حيوان، أحدهم إلى حمل والآخر إلى بقرة، والثالث إلى عنزة، بحيث تصبح دعارة ديونيزيوس حفلة رعوية نبقى فيها وحدنا وسط البهائم، كراع وراعية (كان هذا الخيال الشعري يسليها: المشتركون المساكين في حفلة الجنس الجماعي يهرعون نحو منزل الرذيلة جاهلين أنهم سيغادرون متحولين إلى أبقار).

كانت محاطة بأناس عراة، وكانت تلك هي اللحظة التي تفضل فيها الحملان على البشر. ولما كانت لاتريد أن ترى أحداً فقد أغمضت عينيها؛ ولكنها مازالت تراهم من خلف جفنيها، ترى أعضاءهم ينتصب بعضها ويتقلص بعضها الآخر، بعضها كبير وبعضها رفيع. تمثل ذلك لها كحقل تنتصب فيه ديدان أرض، تتكور تتلوى وتعود إلى السقوط. ثم لم تعد ترى ديداناً، بل أفاعٍ. كانت مشمئزة، ومازال مع ذلك، مثارة. إلا أن هذه الإثارة لاتعطيها الرغبة في ممارسة الحب مرة أخرى، بل إنها على العكس من ذلك، كلما زادت استثارتها، زاد قرفها من إثارتها الخاصة التي تُفهمها أن جسدها لاينتمي إليها، بل إلى هذا الحقل الموحل، إلى حقل الديدان والأفاعي هذا.

فتحت عينيها: من الغرفة المجاورة جاءت امرأة في اتجاهها

توقفت عند الباب المفتوح إلى آخره ورمقت شانتال بنظرة إغراء كما لو أنها تريد أن تنتزعها من هذه البلاهة الذكرية، من سيطرة حقل الديدان هذه. كانت طويلة، رائعة التكوين، بشعر أشقر ووجه جميل. وفي اللحظة التي كانت، فيها شانتال تحديداً، على أهبة الاستجابة لدعوتها، كورت الشقراء شفتيها وأخرجت لعاباً. رأت شانتال هذا الفم وكأن عدسة قوية قد كبرته: اللعاب أبيض ومليء بفقاعات هواء صغيرة. كانت المرأة تُخرج هذا الزبد من اللعاب وتُدخله كما لو أنها تريد إغراء شانتال، كما لو أنها تريد أن تعدها بقبلات حنون ورطبة تنحل بها إحداهما في الأخرى.

نظرت شانتال إلى اللعاب الذي يتلألأ، يرتعش، ينضح على الشفتين، وأصبح قرفها غثياناً. التفتت لتهرب سراً. ولكن الشقراء أمسكت من الخلف بيدها. حررت شانتال نفسها وخطت بضع خطوات لتهرب. وأحست، من جديد، بيد الشقراء على ظهرها، فأخذت تركض. سمعت تنفس مضطهدتها التي اعتبرت، بالتأكيد، هربها لعبة شبقية. كانت في فخ: فكلما زاد جهدها للهرب زادت إثارتها للشقراء التي اجتذبت نحوها مضطهدين آخرين يطاردونها كفريسة.

سلكت رواقاً وسمعت خطوات وراءها. كانت الأجساد التي تطاردها تنفرها إلى حد سرعان ماتحول معه اشمئزازها إلى رعب: ركضت كما لو كان يجب أن تنقذ حياتها. كان الرواق طويلاً وينتهي بباب مفتوح يؤدي إلى قاعة صغيرة مربعة لها باب في إحدى الزوايا. فتحته وأغلقته خلفها.

استندت في الظلام إلى جدار لتستعيد أنفاسها. ثم تلمست حول الباب وأشعلت الضوء. كانت غرفة ضيقة، فيها مكنسة كهربائية ومكانس عادية ومماسح من الخيش. وعلى الأرض، فوق كومة من الخِرق على شكل كرة، كلب. ولما لم تسمع أي صوت من الخارج،

قالت لنفسها: جاء وقت الحيوانات وقد نجوت. وبصوت مرتفع سألت الكلب: «من أنت من هؤلاء الرجال؟».

فجأة، شوشها ماقالته. تساءلت قائلة: ياإلهي، من أين جاءتني فكرة تحوّل البشر، في نهاية الحفلة الجنسية، إلى حيوانات؟

هذا غريب: لم تعد تتذكر، بالمرة، من أين جاءتها هذه الفكرة. بحثت في ذاكرتها ولم تجد شيئاً. أحست، فقط، بإحساس عذب لم يذكرها بأية ذكرى ملموسة، إحساس لغزي، سعيد سعادة لاتفسير لها، كخلاص جاء من بعيد.

وفجأة، انفتح الباب بعنف. دخلت امرأة سوداء، قصيرة، في كنزة خضراء. ألقت على شانتال نظرةً لامفاجأة فيها، قصيرة ومزدرية. خطت شانتال خطوة إلى جانب لتسمح لها بأخذ المكنسة الكهربائية والخروج بها.

وهكذا اقتربت من الكلب الذي أظهر أنيابه وزمجر. استولى عليها الرعب من جديد وخرجت.

47

كانت في الرواق ولم تكن لديها سوى فكرة واحدة: أن تجد سطيحة الدرج حيث ثيابها معلقة على علّاقة. ولكن كل الأبواب التي أدارت قبضتها كانت مقفلة جميعها. وأخيراً، دخلت من الباب المفتوح حتى آخره إلى الصالون. بدا لها كبيراً وفارغاً بصورة غريبة: كانت المرأة السوداء ذات الكنزة الخضراء، قد بدأت العمل، فيه، بالمكنسة الكهربائية الكبيرة. لم يكن هناك من صحبة السهرة سوى بضعة سادة يتحادثون وقوفاً، بصوت منخفض. كانوا مرتدين ثيابهم ولايعيرون أي انتباه لشانتال التي كانت تراقبهم خجلة وقد أحست فجأة بعريها. مضى سيد آخر، في السبعين من

عمره، بمنشفة بيضاء وخفين، نحوهم وتحدث إليهم.

كانت تنقب في رأسها لتكتشف من أين يمكنها الخروج. ولكن ترتيب الغرف، بهذا الجو المتحول، بفراغها غير المتوقع، كان يبدو لها متغير الشكل، ولم تكن قادرة على التعرف على نفسها فيها. رأت باب الغرفة المجاورة التي تعرضت لها، فيها، الشقراء ذات اللعاب على فمها مفتوحاً حتى آخره. كانت الغرفة فارغة. توقفت فيها وبحثت عن باب. لم يكن هناك باب.

عادت إلى الصالون وتبين لها أن السادة كانوا في هذه الأثناء قد رحلوا، لماذا لم تكن أكثر تنبهاً؟ كان يمكنها أن تتبعهم! لم يكن هناك سوى السبعيني ذي المنشفة. التقت نظراتهما وتعرفت عليه. مضت نحوه بحماسة ثقة مفاجئة: «هتفت إليك، هل تذكر؟ قلت لي أن آتي، ولكني لم أجدك عندما وصلت!

قال لها، بلهجة محبة، ولكن دون أن يعيرها انتباهاً:

أعلم، أعلم، اعذريني، لم أعد أشارك في هذه الألعاب الصبيانية».

اتجه نحو النوافذ وفتحها الواحد بعد الآخر. اجتاز تيار هواء قوي الصالون.

قالت شانتال بإثارة: «أنا سعيدة جداً إذ وجدت شخصاً أعرفه.

- يجب طرد كل هذه العفونة.

- قل لي، كيف العثور على سطيحة الدرج. إن كل حوائجي فيها.

قال: اصبري!»، ومضى إلى ركن في الصالون حيث وجد كرسياً منسياً. حمله إليها: «اجلسي. سأهتم بك منذ أن أصبح حراً».

وضع الكرسي وسط الصالون. جلست منصاعة. ذهب السبعيني نحو المرأة السوداء واختفى معها في الغرفة الأخرى.

وهناك كانت المكنسة الكهربائية تزمجر الآن. ومن خلال هذه الضجة، سمعت صوت السبعيني يعطي أوامر، ثم بضع ضربات مطرقة، مطرقة؟ أدهشها ذلك. من يعمل هنا بمطرقة؟ لم تر أحداً! يجب أن يكون أحدهم قد أتى! ولكن، من أين دخل؟

رفع تيار الهواء الستائر الحمر قرب النوافذ. بردت شانتال التي كانت عارية على كرسيها. ومرة أخرى سمعت ضربات مطرقة، وفهمت وقد اعتراها الخوف بأنهم يسمرون كل الأبواب. لن تخرج من هنا أبداً! اجتاحها احساس بخطر هائل. نهضت من على كرسيها وخطت ثلاث خطوات أو أربعاً ولكنها توقفت لأنها لم تكن تعرف أين تذهب. أرادت أن تصرخ طلباً للنجدة، ولكن من يمكن أن ينجدها؟ في لحظة القلق الأقصى هذه عادت إليها صورة رجل يقاتل ضد الجمهور ليصل إليها. أحدهم يلوي له ذراعه خلف ظهره. لم ترَ وجهه، بل جسمه المنحني. ياإلهي! إنها تود أن تتذكره بالمزيد القليل من الدقة. أن تستدعي ملامحه، ولكنها لاتتوصل إلى ذلك. تعلم، فقط، أنه الرجل الذي يحبها، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يهمها الآن. رأته في هذه المدينة، لايمكن أن يكون بعيداً إنها تريد أن تجده بأسرع وقت ممكن. ولكن كيف؟ الأبواب مسمرة! ثم رأت ستارة حمراء تتماوج أمام إحدى النوافذ. النوافذ! إنها مفتوحة! يجب أن تمضي نحو النافذة! أن تصرخ باتجاه الطريق! بل سوف يمكنها أن تقفز إلى الخارج، إذا لم تكن النافذة أعلى مما ينبغي! ضربة مطرقة أخرى، ثم واحدة. يجب أن تتحرك الآن أو لن تتحرك أبداً. الزمن يعمل ضدها. إنها آخر فرصة للتصرف.

48

عاد إلى المقعد الذي لايكاد يُرى في الظلمة التي تركها مصباحا الطريق الوحيدان المتباعدان جداً بينهما.

حاول أن يجلس فسمع زعيقاً. قفز من المفاجأة. كان رجل آخر قد احتل، في هذه الأثناء، المقعد وشتمه. مضى دون احتجاج. قال لنفسه: هو ذا الأمر! هذا هو وضعي الجديد، يجب أن أقاتل من أجل ركن صغير أنام فيه.

توقف حيث كان، في الجانب الآخر من الطريق، الفانوس المعلق بين عمودين ينير الباب الأبيض للبيت الذي طُرد منه منذ دقيقتين. جلس على الرصيف وأسند ظهره إلى السياج الذي كان يحيط بالحديقة.

ثم بدأ المطر رذاذاً. رفع ياقة سترته وراقب المنزل.

فجأة، انفتحت النوافذ، واحدة بعد الأخرى. كانت الستائر الحمر المبعدة إلى الجانبين تتماوج مع النسيم وتسمح برؤية السقف الأبيض المضاء. ماذا يعني ذلك؟ هل انتهى الاحتفال؟ ولكن أحداً لم يخرج! كان، منذ بضع دقائق، يشوى على نار الغيرة، وهو لايحس، الآن، إلا بالخوف، بلا شيء سوى الخوف على شانتال. إنه يريد أن يفعل كل شيء من أجلها، ولكنه لايعرف ما الذي ينبغي أن يفعله، وهذا هو الأمر الذي لايمكن تحمله. لايعرف كيف يساعدها، ومع ذلك فهو وحده، الذي يستطيع أن يساعدها، هو وحده لأنه ليس لديها سواه في العالم، لأحد في أي مكان في العالم.

وقف مبلل الوجه بالدموع، خطا بضع خطوات نحو المنزل وصرخ باسمها.

49

توقف السبعيني أمام شانتال، وكرسي آخر في يده: «أين تريدين أن تذهبي؟»

رأته متفاجئة أمامها، وفي لحظة الاضطراب الكبير هذه صعدت موجة حرارة من أعماق جسدها، ملأت بطنها، صدرها، غطت وجهها. كانت تلتهب. كانت عارية تماماً، محمرّة كلها، ونظرة الرجل الملقاة على جسدها تشعرها بكل جزيئة من عريها المُحرِق، وبحركة آلية وضعت يدها على ثديها كما لو كانت تريد أن تخفيه. كانت اللهب داخل جسدها تحرق بسرعة شجاعتها وثورتها. وفجأة أحست بنفسها متعبة، بغتة أحست بنفسها ضعيفة.

أخذها من ذراعها وقادها نحو الكرسي ووضع كرسيه أمامها تماماً. كانا جالسين وحيدين، وجهاً لوجه، أحدهما قرب الآخر وسط الصالون الفارغ.

عانق تيار الهواء البارد جسد شانتال الذي يتصبب عرقاً. ارتعشت وسألت بصوت خافت متوسل:

«ألايمكن الخروج من هنا؟».

سألها بصوت فيه لوم: «ولماذا لاتريدين أن تبقي معي يا آن؟».

ـ آن؟ تجمدت خوفاً: «لماذا تناديني آن؟»

ـ أليس هذا اسمك؟

ـ لست آن!

ـ ولكني عرفتك دائماً باسم آن!

وصلت من الغرفة المجاورة بضع ضربات مطرقة أيضاً. أدار رأسه نحوها كما لو كان يتردد في التدخل. أخذت لنفسها لحظة الانفراد هذه لتحاول أن تفهم: إنها عارية، ولكنهم يواصلون تعريتها! تعريتها من أناها! تعريتها من مصيرها! سوف يتخلون عنها، بعد إعطائها اسماً آخر، بين مجهولين لن تستطيع، أبداً، أن تشرح لهم من هي.

لم تعد تأمل في الخروج من هنا. الأبواب مسمرة. يجب أن تبدأ، بتواضع، بالبداية. البداية هي اسمها. تريد أن تحصل، أولاً، كحد أدنى ضروري، على أن يناديها الرجل المواجه لها باسمها، اسمها الحقيقي. إنه أول شيء ستطلبه منه، تقتضيه منه. ولكنه تبين لها، وهي ماكادت تلزم نفسها بهذا الهدف، أن اسمها محجوز في ذهنها. إنها لاتتذكره.

وصل بها ذلك إلى ذروة الهلع، ولكنها تعلم أن حياتها مهددة وأن عليها، بكل ثمن، أن تستعيد رباطة جأشها، من أجل أن تدافع عن نفسها، من أجل أن تقاتل. حاولت، بتركيز مستميت، أن تتذكر: لقد أُعطيت ثلاثة أسماء معمودية، نعم ثلاثة استعملت منها واحداً فقط، هذا شيء تعرفه، ولكن ماذا كانت هذه الأسماء الثلاثة، وبأيها احتفظت. ياإلهي، لابد أنها سمعت هذا الاسم ألوف المرات.

عادت فكرة الرجل الذي كان يحبها إلى الظهور، لو أنه هنا لناداها باسمها. ربما تستطيع أن تتخيل فمه الذي يتلفظ باسمها لو نجحت في تذكر وجهه. بدا لها ذلك أثراً جيداً تقتفيه: الوصول إلى اسمها عن طريق هذا الرجل. حاولت تخيله، ومرة أخرى رأت طيفاً يكافح وسط جمهور. كانت صورة شاحبة، آبقة بذلت جهدها بالإبقاء عليها، بالإبقاء عليها وتعميقها وبسطها نحو الماضي: من أين جاء هذا الرجل؟ كيف وُجد في الحشد؟ لماذا قاتل؟

حاولت بسط هذه الذكرى وبدت لها حديقة كبيرة، مع ڤيلا ميزت فيها بين كثير من الناس رجلاً قصير القامة، هزيلاً وتذكرت أنه وُلِد لها معه طفل لاتعرف عنه سوى أنه مات...

- «أين ضعت يا آن؟».

رفعت رأسها ورأت شخصاً عجوزاً جالساً على كرسي أمامها وينظر إليها.

قالت: «طفلي مات». كانت الذكرى أضعف مما ينبغي، ومن

أجل هذا، بالضبط، قالتها بصوت مرتفع. فكرت في أنها تجعلها، على هذا النحو، أكثر واقعية، فكرت في أن تمسك بها على هذا النحو كقطعة من حياتها تهرب منها.

انحنى نحوها، أخذ بيديها وقال بوقار، بصوت مليء بالتشجيع: «انسي يا آن، طفلك، انسي موتاك، فكري في الحياة؟».

ابتسم لها ثم قام بحركة كبيرة بيده كما لو أنه يريد أن يدل على شيء كبير وسامٍ: «الحياة! الحياة! يا آن، الحياة!».

ملأتها هذه الابتسامة وتلك الإشارة ذعراً. ونهضت، ارتعشت، ارتعش صوتها: «أية حياة؟ ما الذي تسميه حياة؟».

السؤال الذي أتت عليٍ طرحه دون تفكير، استدعى سؤالاً آخر: وإذا كان ذلك الموت فعلاً؟ إذا كان ذلك الموت؟

ألقت بالكرسي الذي تدحرج عبر الصالون وصدم الجدار. إنها تريد أن تصرخ ولكنها لم تجد أية كلمة. انبجست آآآ طويلة ومفككة من فمها.

50

«شانتال! شانتال! شانتال».

كان يضم بين ذراعيه جسدها الذي هزته الصرخة.

«استيقظي! ليس ذلك صحيحا!».

كانت ترتعش بين ذراعيه، وقال لها من جديد أيضاً عدة مرات بأن ذلك لم يكن حقيقياً.

كانت تكرر بعده: «كلا، ليس هذا صحيحا، ليس هذا صحيحاً»، وتهدأ ببطء.

وأنا أتساءل: من الذي حلم؟ من حلم بهذه القصة؟ من تخيلها؟

هي؟ أم هو؟ أم كلاهما؟ كل واحد عن الآخر؟ وانطلاقاً من أية لحظة تحولت حياتهما الواقعية إلى هذا الخيال الماكر؟ عندما غاص القطار تحت المانش؟ قبل ذلك؟ في الصباح الذي أعلنت له عن ذهابها إلى لندن؟ أم قبل ذلك أيضاً؟ ذلك اليوم الذي صادفت فيه في مكتب خبير الخطوط نادل مقهى المدينة النورماندية؟ أم أبكر من ذلك أيضاً؟ عندما أرسل جان مارك إليها الرسالة الأولى؟ ولكن، هل أرسل، حقاً، هذه الرسائل؟ أم هل كتبها في خياله فقط؟ ماهي البرهة الدقيقة التي تحوّل، فيها الواقع إلى لاواقع، الحقيقة إلى حلم؟ أين كانت الحدود؟ أين هي الحدود؟

51

أرى رأسين، من زاوية جانبية، يضيئهما نور مصباح سرير صغير: رأس جان مارك وقد استند قذاله إلى وسادة، ورأس شانتال الذي انحنى فوقه على مسافة عشرة سنتمترات عنه.

كانت تقول: «لن تفلت بعد اليوم، من نظري. سأنظر إليك دون انقطاع».

وبعد وقفة: «أخاف حين ترف عيني. أخاف من أن تندس، خلال هذه الثانية التي تنطفئ فيها نظرتي، مكانك، أفعى، جرذ، رجل آخر».

حاول أن ينهض قليلاً ليلمسها بشفتيه.

هزت رأسها: «كلا، أريد فقط أن أنظر إليك».

ثم: «سأدع المصباح مضاء كل الليل، كل الليالي».

فرنسا خريف 1996

من إصدارات الدار

* وليمة لأعشاب البحر	حيدر حيدر
* مرايا النار	حيدر حيدر
* غسق الآلهة	حيدر حيدر
* شموس الغجر	حيدر حيدر
* المخطوط القرمزي	أنطونيو غالا
* النبع الكبير	لطف الله حيدر
* سلالم الشرق	أمين معلوف
* القرن الأول بعد بياتريس	أمين معلوف
* البطء	ميلان كونديرا
* الخطة اللانهائية	إيزابيل ألليندي
* الحب الأول الحب الأخير	الطاهر بن جلون
* بيريرا يدّعي	أنطونيو تابوكي
* أحلام النساء الحريم	فاطمة المرنيسي
* الوله التركي	أنطونيو غالا
* بوّابة الجنة	حسن سامي يوسف





«إذا كان على كونديرا أن يضع لوحة مذهّبة على باب مكتبه، لأمكننا أن نقرأ ما يلي: «دكتور كونديرا. خبير في اللغز البشري».. والآن «الهويّة»: أعجب كتبه بالتأكيد».

ميشيل كريبو، لاكروا

«يقوم إبداع كونديرا على إجراء انزلاق غير محسوس للواقعي نحو الخيالي. إنه، إجمالاً، يَدَعُ القارئَ أقل استقراراً، ولكنه يتركه مذهولاً، مبهوراً لكونه وقع في شَرَكِ حريّة الروائي الشيطانية. إنه فنٌّ رفيعٌ جداً».

غي سكاربيتا، نوفيل أوبزرفاتور

«هذه الرواية الساحرة هي الثامنة لميلان كونديرا. يشعر قارئها، رويداً رويداً، دون أن ينتبه، ودون أن تتعرض شفافية الرواية للتخريب، أنه أسير فخ غريبٍ...».

ميشيل غازييه، تيليراما

«الفن الكونديري يتطور بلا انقطاع. إنه يحتُّ كل شيءٍ مثل ماءٍ مالح. كل شيء فيه يمضي: العصر وانبعاث الأجساد، أكاذيبه الدعائية، كليشيهاته، فكره الوحيد، كل عتاد الحماقة المعاصرة. هناك حنقٌ محسوبٌ مُهَنْدَسٌ، في هذا الكتاب الصغير».

جاك بيير آميت، لوبوان

«لم يسبق أبداً أن كان أسلوب كونديرا بهذا القدر من الانسجام، أنيساً، حاضراً في الأذنِ، ومُلَطَّفاً إلى هذا الحد. كذلك، لم يسبق أبداً أن لَمَعَ الحنق، وربما اليأس المطلق، ببريقٍ له هذا السواد الذي تتلوّن به هذه الملحمة الضارّة، هذا النشيد الجنائزي ليومنا».

رونو ماتينيون، لوفيغارو

«يصف كونديرا التفتُّت القاسي لليقين، ذلك النوع من السرطان النامي الذي يهاجم النفس والجسد في وقتٍ واحد، يأكل الحواجز بين الماضي والحاضر، يضلل النوايا، يزيّف معنى الكلمات، يشطر أكثر المظاهر بساطةً، يقلب الحقائق مثل قفّازاتٍ ويحولها إلى خداع».

بيير لوباب، لوموند